البنات في شعر الآدباء

تأليف

أ. د. مسعد بن عيد العطوي

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

الألوكة

www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البنات في شعر الآباء

تأليف

الأستاذ الدكتور/ مسعد بن عيد العطوي

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ⓒ مسعد عيد العطوي، ١٤٢٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العطوي ، مسعد عيد
البنات في شعر الآباء ـ الرياض
١٦٧ص ، ١٧×٢٤ سم
ردمك : ٤-٤١٩-٣٦-٩٩٦٠
١- الشعر العربي -السعودية أ- العنوان
ديوي ٨١١,٩٥٣١ ٢٠/٢٨٠٤

رقم الايداع : ٢٠/٢٨٠٤
ردمك : ٤-٤١٩-٣٦-٩٩٦٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شكر وتقدير

إلى معالى مدير الجامعة/ الأستاذ الدكتور

محمد بن سعد السالم

الذي فتح الباب لطباعة مؤلفات أعضاء هيئة التدريس في مطابع الجامعة؛ كيما يشرف المؤلف على مؤَلفه، ويتابعه عن كثب في مراحل طباعته.

وفي ذلك تخفيف من كلفة الطباعة، واستثمار للبحث العلمي وكلاهما فيه تشجيع وتنمية للمعرفة ونشرها.

فنسأل الله أن يأخذ بيده لخدمة الإسلام، ووطننا الغالي، وسائر الأمة الإسلامية؛ ليحقق آمال ولاة أمرنا رعاهم الله.

المؤلف

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الإهـــــداء

أهدي كتابي إلى زهرات حياتي، ومؤنسات مجلسي، وزارعات البسمة على شفتي في عتمة الحياة إلى أم أولادي وبناتي: ثبتهن الله بالقول الثابت، وهداهن إلى الطريق المستقيم، ووفقهن الله إلى كل عملٍ صالح وجليل، وجنبهن كل مكروه، وأدام رعايته وحمايته لهن إنه سميع مجيب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقدمة

الحمد لله خالق أرضه وسمائه، خالق ليله ونهاره، خالق رجاله ونسائه، خالق بره وبحره، خالق العقل والروح والجسم، مدبر هذا الكون، وجاعل عنصر التلاحم كل ما تبصرت الأبصار تعود عاجزة قانعة بالباري المصور، وصلى الله على نبينا محمد عبده ورسوله الذي يمثل العلاقة بين الرجل والمرأة، فهو أعظم زوجاً، وأرحم أباً، وألين قلباً، هو حامل راية الإيمان ومعلم البشرية صنائع الحق والخير والجمال وبعد:

فإن البنات فتيات الحاضر وهن أمهات المستقبل، والبنات هن التربة الأولى للأخلاق يستمدن من أمهاتهن الصفات الخلقية كما ورثن الصفات الجسدية.

فبنات اليوم سيصرن أمهات، والأم هي مناهل السلوك والأخلاق هي الأرض وينابيع الماء التي تنبت الغرسة الجميلة المستمرة.

فما أشد حاجة الأمة بأسرها إلى أن تكون الأمهات منابع صافية منقاة تُنشّأ أولادها على الإيمان الصافي، وتنمي عقولهم بالوعي والمنهجية، وتصقل صفحاتهم بالأخلاق الحميدة المحمودة، وتروضهم على الهدى والتقى والعفاف، والإنجاز العملي، والفكر الثاقب يقول معروف الرصافي:

ولم أر للخلائق من محل ... يهذبها كحضن الأمهات

فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربية البنين أو البنات

وأخلاق الوليد تقاس فيه ... بأخلاق النساء الوالدات

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات[1]

فما المرأة إلا منابت شخصيتنا، ومغذيتها بلبانها، وهي مصدر قوتنا، وغارسة حبنا وتآخينا، وهي آسية المرضى والجرحى، وساعد المنكوبين والمحتاجين، ومواسية المحزونين، إنها ساعد الإنسان، وجناح الطائر للمبدعين والمتفوقين المحلقين بالعلم والتقنية، إن الجينات من الأم لا تنحصر في التكوين الجسمي بل تحتل مساحة من التكوين الذهني، فالأولاد يحملون صور الأم الحسية والمعنوية.

يقول إيليا أبو ماضي في الأم:

قال أجل: أشرب سرّ التي بالروح تفديني وأفديها
صورتها في القلب مطبوعةٌ لا شيء حتى الموت يمحوها
لا تترضاني رياءً ولا تلثمني كذباً وتمويهاً
يضيع مالي ويزول الصبي وحبها باقٍ وحبيها
قد وهبتني روحها كلها ولم تخف إني أضحيها
سرّ التي لا غادةٌ بينكم مهما سمت في الحب تحكيها[2]

إن الفتاة التي تستشعر الأمومة، تعد لها عدتها، ولا ريب أن الحنان والتعاطف غريزة أمومية، لكن يصقلها التطبع بالطبائع الفاضلة، والتعقل بالفكر المنهجي، فتكون الأمومة وتهيئة وترويض العوامل الاجتماعية المساعدة هاجس الفتاة تدفعها إلى الإيمان الصافي والعلم النافع والتربية

(١) إيليا حاوي، معروف الرصافي ١٤٢.

(٢) الشاعر إيليا أبو ماضي ١٢٠، دار كاتب وكتاب، بيروت ١٩٨٨م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخلاقة، فتبقى جلاء الروح في حياتها، وتشعل الأحاسيس حية بذكرها بعد مماتها.

تتداعى الأمة لبناء كيانها، وحصونها الأمينة من الداخل، وهل هي تعلم؟ أم هي لا تعلم أن الحصن الأكبر الذي تبنيه إنما هو الفتاة التي ستكون أمّاً، وهل هناك أحصن من الأم ؟! فالأم أكثر فاعلية في بناء العقول قوة أو ضعفاً.

إن مشهد الأم في الطائرة المحترقة التي تضم وليدها بين أحشائها والنار تلتهب من حولها وتلتهم أكسيتها وتصلى وجهها وجوانبها حتى احترقت ووجدوها منحنية على طفلها، إن تلك الأم وكل أمّ كذلك فهي التي تكون قلعة لأطفالها في عقولهم وأخلاقهم!

فإذا كانت القلعة، قد بُنيت من الحجارة الصلدة القوية، وأحكمت البناء بالعلم فستكون حصينة، وكذلك الأم التي أُسست على الإيمان والتقوى والفكر البناء، فإن نتاج الأم؛ يحمل هذا السياج العقلي والفكري، فما أحوج الأمة إلى بناء كيان الأم على الأسس الإسلامية الصافية، والإنسانية الرؤومة، والعقلية المتأملة، والمنهجية الحياتية المتكاملة، مزدانة بالأحاسيس الحانية، والأخلاق العالية. فإذا بُنيت هذه الحصون في كيان الأولاد، فثمة ندرك وجود المرأة الصالحة التي هي من أعظم حصون المجتمع.

فلا غرابة أن يشنف الآباء آذان بناتهم بمواعظ ونصائح تعلو بهن إلى تكوين تلك المنزلة السامية كما أراد الله لها وخلقها لتحمل أمانةً هي من أسمى الوظائف، ومن هنا فالشعراء يزرعونها في بناتهم ويرغبونهن فيها، كي تترقى بسائر قواها العقلية والروحية والجسدية إلى منزلة الأمومة رمز

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البقاء البشري، ورمز التربية الصالحة، ورمز القوة، ورمز الحضارة، ورمز الأمة والوطن فالمرأة تنبئ عن هذه القضايا سواء كانت قوة أو ضعفاً.

الأبنة زهرة الحياة، وزهرة المعالي للأسرة والفرد، كما قيل إن المرأة التي تهز سرير وليدها بيمناها تهز العالم بشمالها، وقيل "وراء كل عظيم امرأة" فالبنات غرس الوطن تتعالى مكانة الفتاة إذا استقت فكرها من جداول العلم والوعي، إن الفتاة نور الهدى، تجلو عن بنيها عمى القلب، وترتقي بهم للمجد، إن تعليمها تعليم للمجتمع وتجسيد للعمل الصالح وتهذيب لأبناء الأمة.

إن كان هناك فخر بأمجاد الأقطار العربية، كشخصية المبدعين والمؤلفين فإن ذلك حقيقة غير أن مفاخر بلادنا في حرز مكين من الظهور لعدم المنهجية الإعلامية مع إنها قيم فاضلة، وأعمال سامقة، وأدوار سامية ومنها تعليم المرأة في بلادنا الذي قام على أسس إسلامية وإنسانية، وصيانة للحياة، وصونٍ للأخلاق من منظور ديني، وفلسفي، وإنساني.

إنني أكن كل تقدير وألهج بالدعاء لأولئك الذين أسسوا تعليم البنات في ديارنا، ووضعوا أنظمتها الرائعة، يستوي عندي المستشارون والمنفذون، من أعلى مستوى الأسرة المالكة آل سعود إلى أولئك الذين باشروا العملية التعليمية وفي مقدمتهم المفتي الشيخ /محمد بن إبزاهيم آل الشيخ يرحمه الله والشيخ عبالعزيز الرشيد والشيخ /ناصر الراشد، أول رئيس لتعليم البنات ونحن الآن نقدر جهود الرئيس المعاصر لكتابة هذا الكتاب الدكتور/ على المرشد، ولأنني قد عاصرت مسيرة تعليم البنات فإنني أقدر للدولة حسن صنيعها باختيار رؤوساء التعليم من علماء الشريعة المشهود لهم بالفضل والصلاح، مما أضفى على التعليم الروح الإسلامية منهجاً، وصبغه بالصبغة الأخلاقية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأخذت الفتاة تترقى بالعلم والعمل، وتتحمل مسؤولية العلم، وتشارك في بناء الوطن فكان في ذلك عزة الفتاة والمرأة وبعزتها عز الوطن وأبناء المجتمع:

إذا ما عنيتم بهذي البنات ... تروا أمهات لكم صالحات

يقاسمنكم متعبات الحياة ... ويعرفن من حقكم ما وجب[1]

أيتها الفتاة أنت تحملين أمانة الحياة على كاهلك فأنت تحملين الإيمان وتحملين إرضاعة لفلذة كبدكِ تتقذينه من وهج الحياة المستعرة فالإيمان هو الفيء الذي إليه يلجأ الإنسان من سعير أخيه الإنسان في الدنيا، وتتقذين طفلك وأنت من لهيب الجحيم الأخروي.

أيتها الفتاة أنت تحملين الغذاء العقلي كما نهضت بالغذاء الجسمي، تحملين بناء المنهجية العقلية، وبناء التأمل الفكري مثل كيفية تلقي القضايا واستقبال العقل لها، والتفاعل معها.

أيتها الفتاة أنت تحملين مسؤولية البناء الخلقي فأنت المنهل الذي يستقي منه غرس الأولاد بنين وبنات فتجذرين القيم التي تلتقي فيها الروح الإيمانية الإسلامية، والإنسانية العالمية.

أيتها الفتاة أنت تحملين مسؤولية منهجية العمل، فالعمل هو الحياة وهو وسيلة عمارة الارض، وسعادة حياة الإنسان، فإذا كان الفرد عاملاً منجزا كان منتجاً فاعلاً للخير، وإن كان متكاسلاً كان عالة على الأسرة والمجتمع.

إن مهام التربية في العالم الإسلامي التكثيف على العمل ومنهجيته

(١) مصطفى الغلاييني، ديوان الغلاييني ٥٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والترويض عليه، ولذا وجب علينا أن ننشر حب العمل في نفوس أولادنا مبكراً من بداية الطفولة بتوجيه من الأم أولاً ومن الأب ثانياً، فعلى الأبوين ألا يتركا الولد ولا يجعلانه اتكالياً في منزله وأعماله الخاصة الصغرى.

أيتها الفتاة أنت تحملين أمانة المال الوطني والأسري، فعليك حمايته وتصريفه في أوجه الخير،تصونينه من الإسراف والتبذير، وتخضعينه للعقل والتدبير، أما إذا كان في أسرتك ضيق من العيش، فعليك أن تسعى جاهدة، وتكوني عوناً لزوجك، تواسينه وتؤانسينه، كي تكون مسيرة الحياة في توازن واعتدال، فعلى فتاة اليوم أن تهيء العقل، فتكون عقلانية لتوازن بين الأمور بذكاء وروية، وتكون عوناً لزوجها في المستقبل، ولا يكون إلا بالتخلي عن إثقال كاهله بمتطلبات يعجز عن تلبيتها إلا بالإستدانة، ومن ثمّ تتراكم عليه الديون، ويتعكر صفو الحياة، وتضعف تربية الأولاد، وتذوي الأسرة، وتتزوي، وربما تفترق، ويضيع الأولاد.

وبعد فلقد دعاني إلى هذا البحث صدى قراءتي لإبداع المبدعين من الشعراء حين يمحضون بناتهم بصفاء أرواحهم وعقولهم. وقد حاولت أن أرصد مسيرة الحياة للبنت من يوم ولادتها ومروراً بطفولتها ومؤانستها لأهلها،ومشاركة الأب لها في أفراحها وأتراحها إلى يوم وفاتها، وعلوقها بقلبه حتى بعد وفاتها. والله أسأل الأجر والمثوبة والدعاء الخالص من كل قارئ وقارئة.

أ. د. مسعد بن عيد العطوي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المرأة في الجاهلية

الجاهلية العربية الأولى جاهلية لبعدها عن التعاليم الربانية، فلا يؤرخ التاريخ سيرة نبي، ولارسالة رسول، والرسول- أرسل إلى قوم لم يكن لهم رسول من قبل، ومع ذلك صاغوا لهم منابع الحكمة والرأي السديد، وحددوا مسالك للأخلاق قلّ أن نجد لها مثيلاً في الأمم الأخرى، فصيانة العرض قبل المال بل قبل الأنفس، فيختارون المنازل والديار التي لا تبتذل فيها المرأة، وهم يختارون جيرانهم الذين يعرفون بالعفة، وهم يرقبون وضع النساء مع أعطاء الثقة والحرية في الانتقال اليومي للرعي وغيره.

كما يعملون جاهدين على تفويت فرص النزغ وطيش الشباب، وكانت مجالسهم حافلة بتربية الأجيال على العفة والفروسية، والمروءة، فالقص الليلي في منتدياتهم يلهب روح الشباب ثم بعد ذلك العقاب الشديد الذي لا نظير له إذا ما اتضح الأمر الذي يؤدي إلى خمول الفتى والفتاة معاً.

بل إن أب الولد تارة يتولى قتل ابنه الشاذ أو يهدر دمه ويتبرأ منه كما فعل ملك كنده لابنه إمرئ القيس، والعار لا يكون على فرد وإنما على القبيلة كلها وبذلك تخشى المنحرفة والمنحرف وطأة كل فرد من القبيلة أو أبناء العمومة والأخوة داخل القبيلة، وقد تطور العقاب في القبائل المتأخرة إلى دفع عدد من الديات، وإركاب الجاني حمار يُطاف به بين الناس، وإلباس خيمة الشعر حللاً بيضاء، وقد أُخذ ببعض هذه المبادئ كتأديب في المدن كالقاهرة وبغداد لا سيما في عهود المماليك.

فلما يداهم القبيلة جيوش غازية فإنهم يسارعون إلى تحصين النساء والأطفال، وينتدبون من يحميهن ويحرسهن أو يختارون أحصن القلاع والحصون لأنه من العار أن تُسبى النساء ثم يقدمون أنفسهم للحرب دفاعاً

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عنهن وعن أموالهم.

والفتاة ليست ضعيفة لا حيلة لها، ولكنها تكافح حربياً، وتلهب حماسة قومها؛ فهي تقف مع قومها مشعلة لهيب الحرب كما يتضح من قصة المثل المعروف «ما يوم حليمة بسر».

فـ «حين استحكمت الجفوة بين المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، والحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام، وطمع كل منهما في صاحبه، فخرج إليه بما ملك من قوة وبأس شديد. وبينا الحارث في طريقه إلى العراق قدم عليه قادم من الحيرة له نسب في الغساسنة فأخبره أن جيش المنذر لا يناله العدوان لا طاقة له بقتاله! فلما ترآى الجيشان على «عين أباغ» اختار الحارث مائة من فتيانه كلهم شديد البأس، قوي الشكيمة، وأمرهم أن يأتوا المنذر فيفضوا إليه بطاعتهم وطاعة أهل الشام جميعاً، حتى إذا أنسوا منه هدوءاً وغِرَّة فتكوا به. ثم أمر ابنته حليمة فطافت بهم فضَمَّختهم بالمسك جميعاً - وكان ذلك مما أفاض عليهم حميَّة وعزما وإقداماً فذهبوا إلى حيث أمروا، وقتلوا المنذر وهو في العدد العديد من قومه حتى إذا سمع الحارث وجنده صيحة الظفر من فتيانهم زحفوا فتلاقوا بأعدائهم وأوقعوا بهم.

فراحوا فريقاً في الأسار ومثله قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ذلك يوم حليمة وهو من أروع أيام العرب وأهولها وحسبه على ما نريد دليلاً. وأما حجاب الانتقاب فلم يكن له بينهن نظام شامل ولا هيئة واحدة ففي القبيلة الواحدة ترى «البرزة» وهي التي تجلس إلى الرجال وتجاذبهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحديث سافرة». ومنهن المتلثمة التي تغطي ما تحت الفم، ومنهن التي تستتر بالنقاب.

وقال يوسف خليف «وكانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية في فنهم الحربي، وكانت المقدرة على حماية الظعينة عنصراً أساسياً من عناصر البطولة العربية فجعلهم يطلقون على بعض أبطالهم «حامي الظعينة»[1].

ومما يروى في حماية (الظعينة) أنَّ دريد بن الصمة خرج مرة في فوارس من بني جشم حتى إذا كانوا في واد لبني كنانة لاح لهم رجل في ناحية الوادي ومعه ظعينة، فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه صح به: «خل الظعينة وانج بنفسك» وهم لا يعرفونه، فلما ألحّ عليه الفارس ألقى الرجل زمام الراحلة وقال للظعينة:

سيري على رسلك سير الآمن سير رداح ذات جأش ساكن

إنَّ انثنائي دون قرني شائني أُبلي بلائي وأخبري وعايني

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه للظعينة، فبعث دريد فارساً آخر لينظر ما فعل صاحبه، فلما انتهى إليه صريعاً صاح به، فتصامّ عنه وظن أنه لم يسمع، فغشيه فألقى زمام الراحلة إلى الظعينة ثم رجع وهو يقول:

خل سبيل الحرة المنيعة إنك لاق دونها ريعة

---

(١) الشعر الصعاليك ص ١٠٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في كفيه خطية مطيعة

أولا فخذها طعنة سريعة والطعن مني في الوغى شريعة

ثم حمل عليه فصرعه فلما أبطأ على دريد فبعث فارساً ثالثاً لينظر ما صنعا فلما انتهى إليهما رآهما صريعين ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له خل سبيل الظعينة، فقال للظعينة: اقصدي البيوت ثم أقبل عليه فقال:

ماذا ترى من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس

أرداهما عامل رمح يابس

ثم حمل عليه فصرعه، وانكسر رمحه. وارتاب دريدوظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل، فلحق ربيعة وقد دنا من الحي، ووجد أصحابه قد قتلوا، فقال: أيها الفارس، إن مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحاً والخيل ثائرة بأصحابها، فدونك هذا الرمح فإني منصرف إلى أصحابي فمثبطهم عنك، فانصرف دريد وقال لأصحابه: «إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فرسانكم وانتزع رمحي ولا مطمع لكم فيه فانصرفوا» فانصرف القوم.

فقال دريد:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامي الظعينة فارسا لم يقتل[1]

أردى فوارس لم يكونوا نهزة ثم استمر كأنه لم يفعل

(١) قطوف من ثمار الأدب ص ٢٥٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يزجي ظعينته ويسحب رمحه متوجهاً يمناه نحو المنزل

وترى الفوارس من مخافة رمحه مثل البغاث خشين وقع الأجدل

فأي قوة تمنحها المرأة للرجل ؟! إنها تعادل منزلة المرأة في أحاسيسه، ومن هنا نستدل على مكانة المرأة في الجاهلية، فالرجل يفديها بالنفس، وهل هناك أعز من الأنفس.

وقال ربيعة ذلك الفتى العربي الذي داهمه القوم فانتصر عليهم:

إن كان ينفعك اليقين فسائلي عني الظعينة يوم وادي الأخرم[1]

إذْ هي لأول من أتاها نهبة لولا طعان ربيعة بن مكدَّم

إذ قال لي أدنى الفوارس ميتة خل الظعينة طائعاً لا تندم

فصرفت راحلة الظعينة نحوه عَمْداً ليعلم بعض ما لم يعلم

وهتكت بالرمح الطويل إهابه فهوى صريعاً لليدين وللفم

ومنحت آخر بعده جياشة نجلاء فاغرة كشدق الأضجم

ولقد شفعتهما بآخر ثالث وأبى الفرار لي الغداة تكرّمي

ومرت فترة على ذلك الحادث، ثم يشاء الله أن يؤسر دريد لدى بني كنانة مع جماعة من بني جشم، وتخرج النساء الكنانيات يتجولن بين الأسرى - كعادة العرب -يسخرن منهم لمزاً واستهتاراً، وفجأة: صرخت إحدى النسوة: «هلكتم وأهلكتم ماذا جرى علينا قومنا، ووقفت النسوة

(١) المصدر السابق

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يستطلعن الخبر مدهوشات، فأزالت القائلة عنهن الحيرة حين أشارت إلى أسير يرزح بأغلاله قائلة: هذا والله الذي أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة، ثم ألقت عليه ثوبها وقالت: «أنا جارة له منكم، هذا صاحبنا يوم الوادي، فسألوه عن نفسه: فقال: أنا دريد بن الصمة فمن صاحبي؟ قالوا: ربيعة بن مكدم قال: فما فعل؟ قالوا: قتلته بنو سليم. قال فما فعلت الظعينة؟ قالت: أنا هي وأنا امرأته. وصار القوم في حيرة من أمرهم. فهل يكفرون نعمته ويبقونه في الأسر حتى يفتدي نفسه. أم يليون نداء الواجب ويفون بجوار المرأة له، وكأن المرأة عرفت ما يدور بخلدهم، فخرجت ليلاً تطوف بين بيوتات القوم، توقظ النائم وتسمع الساهر صرخات مدوية، وكأنها تملي على القوم ما يجب أن يفعلوه فتعالى صوتها:

سنجزي دريدا عن ربيعةنعمة ... وكل امرئ يجزى بما كان قدما

فإن كان خيراً كان خيراً جزاؤه ... وإن كان شراً كان شرا مذمماً

سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة ... بإعطائه الرمح الطويل المقوما

فقد أدركت كفاه فينا جزاءه ... وأهل بأن يجزى الذي كان انعما

فهل تكفروه حق نعمائه فيكم ... ولا تركبوا تلك التي تملأ الفما

فكوا دريدا من أسار مخارق ... ولاتجعلوا البؤسى إلى الشر سلما

ولمكانة المرأة السامية عند العرب، لم يستطيعوا رفض طلب (ريطة)، وأفحمت بأبياتها من كان يتردد في إطلاق سراحه، ودعت بالوفاء وركزت على تلك الكلمة؛ لأنها تثير حفيظة العربي من عرفان بالجميل، ولم تكتف (ريطة) بإطلاق سراحه بل كسته وجهزته ولحق بقومه مكرماً معززاً،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأثبتت (ريطة) الأخلاق العربية السامية بحفظ الجميل لمن يستحقه لعلو همته وتقديراً لرجل باسل بات تحت الثرى[1].

فكيف نشكك في مكانة المرأة عند الجاهليين؟ ألم تكن درة غالية، وصاحبة كلمة نافذة، تجير كما يجير الرجل، بل هي أكثر استثارة للجموع.

ولو قورنت المرأة العربية في جاهليتها مع المرأة في الأمم الأخرى: لوجدنا أن المرأة العربية كانت ذات بال وأهمية تفوق مكانة المرأة في الأمم الأخرى فلم تكن العربية الحرة تمتهن كغيرها في الأمم الأخرى.

واحتفظت بأعز خاصية النساء الشرف والعفة، فلم تكن الحرة تزني، وقال النعمان:«النساء العربيات أعف النساء» فكن يحرمن الزنا للحفاظ على شرف القبيلة وعدم اختلاط الأنساب ولقد اعتقد العرب أن اختلاط الأنساب يفسد النوع ولم يكن العربي ينظر إلى جمال المرأة الجسدي فحسب. بل يهتم بالقيم المعنوية من حسب وشرف وخصال كريمة. فالشنفري يتحدث عن شرف زوجته وحسن أخلاقها ويمدحها بالوقار والخجل تتستر وتلملم قناعها فلا يسقط، وإذا مشت أسدلت عينيها وغضت بصرها، ولا تميل لمحادثة الرجال، وإن اعترضها رجل أوجزت ومضت لشأنها، فهو يتيه فخراً ويتعالى زهواً لسمعتها الطيبة في العشيرة، وهو سعيد بها يثق بتصرفاتها. فهي سامية الخلق نقية الردن، حسنة المعشر. فهل فتاة عصرنا تتمثل أرومتها الأصيلة وتدع التقاليد المستوردة فلا تمشي متبرجة تعرض أنوثتها على الجوالة ؟! إن المرأة العربية لا تتشبه بالإماء جهالة وتهتكاً، وإنما تكون كما قال الشنفرى:

---

(١) انظر كتاب قطوف من ثمار الأدب جـ١ ص ٢٥٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد أعجبني لا سقوطاً قناعها إذا مـا مـشت ولا بذات تلفُّت

تبيت بعد النوم تهدي غبوقها لجـارتهـا إذا الهـدية قلّت

تحل بميـماة من اللوم بيتـها إذا مـا بيـوت بالمذمـة حلّت

أميمة لا يخزي نتاها حليلها إذا ذكـر النسـوان عـفت وجلّت

إذا هو أمـسى آب قـرة عـينة مآب السعيد لم يسل أين ظلّت

فالمرأة الحرة في الجاهلية حافظت على عرضها وصانته، واستشعرت موقفها من أسرتها وزوجها، فهي الأمينة والأنيسة ويقول علقمة بن عبده التميمي يصف زوجته:

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضى إياب البعل حتى يؤوبا

ويكفينا تأمل رحلات أبناء الجزيرة في الجاهلية والإسلام للتجارة صيفاً وشتاءً ثم بعد الإسلام حتى تمثلت في العقيلات، فهم يرحلون ولا يعودون إلا بعد سنة أو ما يقاربها وبعضهم يمكث سنين وقد يكبر أولاده فلا يعرفونه إذا عاد وأمهم حصان عفيفة تربي أولادها بل كم قتل منهم شاب عن امرأة شابة، وعنيت بتربية أولادها وعزفت عن الزواج وتفاخر أخوتها وأبناؤها بحصانتها ونزاهتها وعفتها بل كانت القدوة لبنات حيها.

إننا أمام امرأة عربية عالية الخلق لا نظير لها في عفافها وتفانيها في سبيل حياة من حولها تبذل روحها وتكتم رغباتها بل تشتريها بالثمن الغالي ذلكم العفاف وصيانة العرض والعطاء للزوج والأولاد. والشعراء يبادلونهن العفاف ذاته فلو تحدثت المرأة العفيفة عن عفتها لقالت كما قال النمر بن تولب:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا يعلم اللامعات اللامحات ضحى ما تحت كشحي ولايعلمن أسراري

ولا أخون ابن عمي في حليلته ولا البعيد نوى عني ولاجاري

حتى يقال إذا وزّيت في جدثي قد مضى غرٌ عارٍ من العار[1]

ولقد بالغ العرب في الإباء والعفة والشرف وكانت النساء النقطة الحساسة في شرفهم، ولذلك أحاطوها بسياج من العادات للحفاظ عليها، حتى لا تتعرض لما يكشف سترها الذي يجعلونة إساءة لهم.

والمتفحص الاجتماعي يتعجب لقدرتهم التربوية، فهم زرعوا فيهن التربية الذاتية. فالعربية حتى قبل الإسلام تحافظ على شرفها، وترعى عرضها، وعرض من تعول، وهم إذا أنسوا منهن ذلك الحرص، منحوهن الثقة، وفخروا بهن وهن أشد فخراً، بالآباء والأخوة والأزواج، والأبناء الذين يحموهن ويصونوهن، فلا ضير عندهن أن يكن كالزجاجة فرفقاً بالقوارير مع الاعتزاز بكيانها وقدرتها على إبداء الرأي، وإذا اضطرت حاربت كما تشير بعض قصص العرب إلى المرأة التي اقتتلت مع قاتل أبيها وأخواتها فأراد أن يأخذها سبية لكنها سلت السيف واستعدت للقتال لكن الفارس خشيها، فخدعها وقتلها.

فهم حموا المرأة وذادوا عن دمائها وصانوا حياتها، وهم حافظوا على شرفها وعفتها. بل إنهم زرعوا القيم كيما تتبع من كيانها فالعفة والحياء، وصون العرض كل ذلك نابع من أحاسيسها وعقلها.

كان العربي شديد الحساسية فيما يتعلق بشرفه، شديد الحذر للحفاظ

(١) نوري حمودي القيسي، شعراء إسلاميون ص ٣١٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على نسائه يختار الأماكن المخوفة والدار الصعبة الارتياد حتى ولو خلت من الماء والشجر حتى لا يتعرض للغزو ويلطخ شرفه شئ أو عار فقال الأعشى:

ودار حفاظ قد حللنا مخوفة سراة قليل رعيها ونباتها[1]

أما الفجور في الجاهلية فإنه كان للجواري الرقيقات حتى يلدن عبيدا يستخدمونهم، وهذه ذمها الإسلام، فقال تعالى: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا» (النور ٣٢).

وقد ألزم الشرع الإسلامي بحد الجواري اللاتي يتعرضن للزنا.

بينما نجد المرأة الحرة في الجاهلية، حافظت على عرضها وصانته، واستشعرت موقفها من أسرتها وأدركت أنها تحمي عرضهم بعفافها، فكانت مصدر فخار وتباه للإخوان والآباء.

وصخر السلمي يعلل كرمه لأخته الخنساء حين ناصفها ماله بأنها حصان رزان لا تدان بريبة.

وكثير من أبناء القبائل يبذل أنفس الهدايا من الإبل للأمهات والأخوات وهم يحافظون على صلة الأرحام من قبل النساء بينما الحضارة المعاصرة تسلخها من نسبها لتحمل اسم زوجها.

والنابغة الذبياني يصف نساء قومه بالبعد عن الفحش وأنهن يتوشحن بالعفاف.

شُمس مواقع كل ليلة حرة يخلفن ظن الفاحش المغيار

(١) ديوان الأعشى ص١٣٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكل منّا يدرك أن العربية قبل الإسلام وبعده تستلهم قول عنترة بن شداد أو تتمثل به:

ولكن تبعد الفحشاء عنى كبعد الأرض عن جو السماء[1]

ومن معالم تكريم المرأة وصيانتها أن الرجل يؤثرها على غيرها متى ما تعلق بها، فهي تتلبسه وتستحوذ عليه فينظر إليها نظرة التعاطف والتمازج، فيسمو الحب ليكون علاقة دائمة تتجاوز الغرائز الجنسية إلى ما هو أسمى فترتبط روحاهما معا، ومن هنا كان الحب العذري الذي اشتهرت به العرب في الجاهلية والإسلام، وكانت غايته الارتباط الشرعي لا المتعة الحسية وأغلب العرب والشعراء يعشقون واحدة، وإن تكاثرت الأسماء في القصائد الشعرية لشاعر واحد فإنما هن رمز لأن الشاعر لا يبوح باسم معشوقته. حفاظا عليها وسترا لها، وخشية من التأويل الخاطئ ولئلا تتعرض لمساءلة الأقارب.

ومن معالم تكريم المرأة قيام الحرب عندما يتجاوزون حدودهم عليها بالشتم أو الضرب أو كشف العورات، فحرب الفجار الثانية قامت بينهم لما تعرض فتية من قريش لامرأة من بني عامر بن صعصعة في سوق عكاظ.

وكذلك قصة الزهراء أخت كليب التي صفعها زوجها لبيد بن عنسية، فلجأت باكية إلى أخيها فقتل كليب لبيداً، وأصبح ملكاً للعرب. وقصص الحروب التي يثيرها التعرض للمرأة كثيرة عند العرب قديماً وحديثاً، وكم في المقابر من قتيل في سبيل العرض.

---

(١) الديوان

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا ريب أن المجتمعات يتداخل في تكوينها شرائح أو أفراد يحملون انحرافاً فكرياً أو سلوكياً، كالصعلكة وغيرها، والعرب مع رعايتهم للمرأة، والبنات وجد بين ظهرانيهم من يخالف ذلك وربما هو تجاوز للحد ومن الحب ما قتل، فهم يستشعرون مسؤولية التربية، ويغارون على بناتهم، ويرحمونهن، فيتألمون لأي عارض يعترضهن مما جعل بعضهم يتجاوز حده، ويئد إحدى بناته خشية الإملاق، وخشية العار والوأد كان في شريحة محدودة من المجتمع، ومنهم قيس بن عاصم المنقري الذي وأد اثنتي عشرة بنتاً ولما أسلم أمره الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعتق بكل واحدة جارية ويرون أن الذي دفعه إلى ذلك حادثة لابنته أثرت فيه وهي: (أن النعمان بن المنذر أوقع ببني تميم لمنعهم الأتاوة عنه، فاستاق نعمهم وسبى نساءهم وفيهن ابنة قيس المنقرى فوفدت وفودهم على النعمان ضارعين إليه أن يرد نساءهم فحكم النعمان أن يجعل الخيار إلى النساء، فأيما امرأة آثرت زوجها ردت إليه، فكلهن اخترْت أزواجهن إلا ابنة قيس فإنها اختارت سابيها، فنذر أن يئد كل ابنة تولد له) [1].

ولعل هذا يشبه من قتل أسرته خشية الحرب النووية. وإن كنا لا نقر هذا الأفراط قديماً وحديثاً.

ولم يكن قتل الأولاد بدعة عربية، فقد فعلت بعض الأمم القديمة ما هو أشنع منه، فإسبرطة كانت تقضي بإعدام الأولاد الضعاف أو المشوهين عقب ولادتهم، أو تركهم، في القفار طعاما للوحوش و الطيور، وكانت الأم تغمس الوليد في دن من النبيذ مدة، فإن عاش دل هذا على قوته

(١) المرأة في جاهليتها وإسلامها ١٦:٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وصلاحيته للحياة، وإن مات تخلص المجتمع من عضو ضعيف، وهذا النظام نفسه أو ما يقرب منه كان منتشراً في أثينا وروما، وقد أقره فلاسفة اليونان وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو.

وكان يجب على الآباء في كثير من الشعوب البدائية وغيرها قتل أولادهم أو بعضهم لا عتبارات دينية أو اقتصادية، فليُستحيا البنات ويُقتل البنون، أو يُستحيا البنون ويُقتل البنات، أو يُقتل الأولاد بدون نظر إلى ذكورة أو أنوثة[1]. وفي المنطقة المتجمدة الشمالية حياة شظف قائمة على الصيد، ولذا فإن بعض جماعات الإسكيمو يئدون بناتهم بعد الولادة بزمن قصير.

وكان الفينيقيون يقدمون النساء قرابين للآلهة عشتروت (الزهرة)، وفي عبادة مولوخ (إله النار) يضحون بالأولاد إحراقاً في النار الملتهبة[2].

(١) الأسرة والمجتمع ١١٨.

(٢) المرأة في التاريخ والشرائع. جميل بينهم ٤٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كراهية بعضهم للبنات:

وما من شك أن الشرائح التي وأدت بناتها كانت تكره النساء، سواء أكان ذلك لأنهن لا يساهمن في كسب الرزق ولا في الدفاع، وأمّا لعقيدة دينية.

وقد هجر أبو حمزة الضبي امرأته لأنها ولدت بنتاً، فمر بخبائها يوماً وإذا هي ترقصها وتقول:

ما لأبي حمزة لا ياتينا ... يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا ... تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزارعنيا

تنبت ما قد زرعوه فينا[1]

ولا أظن أن هناك عقيدة دينية في الجاهلية تدفعهم إلى ذلك، وإنما تنحسر الدوافع للوأد في الخشية من الفقر وخشية العجز عن الحماية، ولا شك أن الصراع الحربي الدائم من الحوافز على تمني الأبناء للحماية والقوة فالبقاء للأقوياء، ولا ريب أن طبيعة الرجل أقوى، حتى الأمهات يدركن ذلك فهن يتلهفن على إنجاب الأبناء، ولكن يتجلى الأمر بالاعتدال فإن الذي يُرزق إناثاً وذكوراً يحمد الله ويشكره. وتلك طبيعة بشرية لا تقتصر على العربي، وإنما هي هاجس كل إنسان. وما كره أبو حمزة البنات إلا عندما كثرن عنده، فهو يتمنى أبناء، ولم يكره البنات اللائي عنده ولم يسئ معاملتهن.

(١) انظر: أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٣٧ط ٤ د.ت.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حماية الفتاة:

أما منزلة المرأة والبنت في الأسرة العربية في الجاهلية والإسلام فإنه أمر محفوظ بالحماية وتأمين المأوى والملبس، ومحاط بالحب والتواد، فما تفسير الحب الغامر للأباء والأمهات، وماذا نفسر فداء البنات لإخوانهن الذين يُقتَلون أو يؤسرون، إن الحب هو الشائع الذائع، ولكن شيوعه وعموميته أفقدته الحديث عنه لأن الإنسان لا يتحدث عما هو شامل عام، وإنما يكون الحديث عن النادر ومع ذلك دوّن الشعر العربي لنا بعضاً من المقطعات وما ضاع ولم نعثر عليها أكثر فمما حُفِظ لنا قول معن بن أوس وكان له ثمان بنات، ويقول: ما أحب أن يكون لي بهن رجال وفيهن قال:

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا نكذب نساء صوالح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يملللنه ونوائح

«وحدثوا أن عمرو بن العاص دخل على معاوية بن أبي سفيان وعنده بنت له يلاعبها. فقال له: انبذها عنك يا أمير المؤمنين! فوالله أنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويؤدين إلى الضغائن. فقال معاوية: لا تقل، فما ندب الموتى، ولا تفقد المرضى، ولا أعان على الحزن مثلهن»[1].

وقال الزهري: كانوا - يريد أصحاب رسول الله - لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة، ولا جهاداً، لحاجتهن إليه، وشغله بهن، والعناية بتربيتهن. وكان أبو خالد القناني من غلاة الخوارج - يشير إلى ذلك، وكان قد طُلِب إليه الغدو إلى قتال فقال:

---

(١) عفيفي، المرأة العربية ٢: ٢٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد زاد الحياة إليَّ حبًّا ... بناتي أنهن من الضعاف

أُحاذر أن يرين الفقر بعدي ... وأن يشرين رنقاً بعد صاف

وأن يعرين أن كُسى الجواري ... فتنبو العين عن كرم عجاف

ولولا ذاك قد سَوَّمت مُهري ... وفي الرحمن للضعفاء كاف

أبانا من لنا أن غبت عنا ... وجَدَّ الحي بعدك في اختلاف[1]

وبمجيء الإسلام توسعت آفاق المرأة فاضحت مجاهدة مقاتلة فهذه صفية بنت عبدالمطلب تدافع عن نساء الخندق وعدد من النساء أستأذنّ الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى غزوة خيبر فأذن لهن ومنهن المجاهدة خولة بنت الأزور التي وقفت جنبا إلى جنب مع خالد بن الوليد في معركة (أجنادين) بعد أن أسر أخوها وهي التي أوعزت النساء بعد أن أسرن في غزوة (صحورا) الحمية في قلوبهن، ولم يكن من السلاح شيء معهن. فقالت: خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، ونحمل بها على هؤلاء اللئام، فلعل الله ينصرنا عليهم. فقالت عفراء بنت عفار: والله ما دعوت إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت. ثم تناولت كل واحدة عموداً من عمد الخيام، وصحن صيحة واحدة، وألقت خولة على عاتقها عمودها، وتتابع النساء وراءها فقالت لهن خولة: لا ينفك بعضكن عن بعض، وكن كالحلقة الدائرة، ولا تتفرقن فتملكن، فيقع بكن التشتيت، وحطمن رماح القوم، واكسرن سيوفهم. وهجمت خولة، وهجم النساء وراءها، وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت، حتى استنقذتهن من أيدي الروم وخرجت وهي تقول:

(١) المبرد الكامل، تحقيق/ محمد الدالي ١٠٨٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نحن بنات تبع وحمير وضربنا في القوم ليس ينكر

لأننا في الحرب نار تسعر اليوم تسقون العذاب الأكبر[1]

وهذا ابن يسير بدأ يعلن عن حبة للحياة بشكل جديد، ليس لمعاقرة الكأس أو مصاحبة الغواني، ولكن ليعيش لابنته التي يحبها ويحنو عليها ويخشى عليها إذا مات ذل اليتم وقد جفاها ذوو رحمها، إنه يخشى على فلذة كبده فظاظة عم أو جفاء أخ، وهو كلما تصورها تندبه سالت عبرته ممزوجة بدمه، ومن ثم فهو يتمنى لها شيئا آخر في حياته حباً لها وشفقة بها، فماذا قال الشاعر الحكيم وماذا تمنى؟ أن يقول:

لولا البنية لم أجزع من العدم ولم اجب في الليالي حندس الظلم

وزادني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

إذا تذكرت بنتي حين تندبني جرت لعبرة بنتي عبرتي بدم[2]

والعربي يلتزم برعاية أسرته لا سيما إذا كان جلها من النساء فإنه حينئذٍ يستشعر عظم المسؤولية، فلا يغادر إلا لطلب الرزق ويعرض عن الأسفار كيما يظل بجانبهن يحوطهن بالحنان والرعاية يقول حطان بن المعلى:

لولا بنيات كزغب القطا رددن من بعض إلى بعض

لكان لي مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض

(١) عفيفي، المرأة في جاهليتها وإسلامها ٢: ١١٧.

(٢) محمد معيدي، أشعار النساء ٨٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

لوهبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض[1]

تربية المرأة في الإسلام:

ومن أشهر الدراسات عن المرأة العربية وتاريخها دراسة عبدالله عفيفي، فقد تحدث عن المرأة في الجاهلية والإسلام، ووصف قوة تأثرها بالمواقف الإيمانية لصفاء في نفسها، ولعمق نظرتها للمواقف الإنسانية، ففطرتها وطبيعتها أشد تعلقاً بإنسانية الإنسان، وعلاقتها بالكون في حياته العاجلة وداره الآخرة، فهي تطلب الحياة الصالحة. «وللمرأة من دقة الحس، وقوة العاطفة، وبعد الخيال فوق ما للرجل فهي لا تبرح الدهر بين خاطر متوثب، ووجدان متأثرلا تكاد تستمع خبرا، أو تلمح منظراً، أو تطيف بها ذكرى، حتى ينال ذلك من أعماق نفسها، وأسرار وجهها، وشئون عينيها»[2].

ومن هنا فإن الفتاة جديرة بأعظم الجهد التربوي،والرعاية الأسرية، وهي أكثر قبولا للتوجيه الرباني،ويدرك ذلك من يرعى بنين وبنات، فإن البنات أسرع لقبول التوجيه، فإن التزامهن بالصلاة أسهل وأيسر، فالأباء والمهات لا يجهدون أنفسهم في إيقاظهن بينما يعاودون على الأبناء المرة تلو الأخرى.

حقيقة لا مراء فيها... فأي طرق التربية آثر في حياة المرأة، وأحق باستكمال فضائلها، وأذاعه مزاياها ؟

---

(١) محمد بدر معبدي، أشعار النساء ٨٠.

(٢) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٢:٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدين وحده هو كفيل بذلك. فهي بما لها من انفساح مدى التصور، وقوة سلطان العاطفة، تتمثل عظمة الله أكثر مما يتمثل الرجل، وتستشعر حب الله والخوف منه بأشد مما يستشعره.

«إن تصديق المرأة تصديق وثيق عميق. فهي لاتحاول - كما يحاول الرجل - تطبيق أمور الدين جليلها ودقيقها على عقلها. وفي الدين أشياء لا تنالها العقول، ولست بناس ابد الدهر مشهداً لا يزال على طول العهد به يهتاج عواطفي، ويحيل جوانحي وجوارحي إلى وجدان فياض، ومشاعر ثائرة، وهو على ما نقول أدل، وبه أمثل. وذلك الذي أقصه عليك:

«في أصيل يوم من صيف سنة ١٩١٤هـ كنت واقفاً في جمهور الواقفين في محطة طنطا أترقب القطار القادم من الإسكندرية لأتخذه إلى القاهرة.

لقد كان كل في شغل بتلك الدقائق المعدودات يقضيها في توديع وإشفاق، وترقب وانتظار، وحمل متاع وتنسيق آخر، وكنت في شغل بصديق يجاذبني حديثاً شيقاً ممتعاً في تلك اللحظات الفانية، وبين ذلك الجمع المحتشد، راع الناس صياح واعوال، وتهدج واضطراب، ومشادة ومدافعة، ثم أبصروا فإذا فتاة في السابعة عشر من عمرها، يقودها إلى موقف القطار شرطي عات شديد، وساع من سعاة معتمدي الدول قوي عتيد، ومن خلفها شيخ أوربي جاوز الستين مكتئب مهزول، وهي تدافع الرجلين حولها بيدين لا حول لهما.

أقبل القطار ثم وقف! فكاد كل ينسى بذلك الموقف موقفه وما قصد له، ثم أصعدت الفتاة وصعد معها من حولها، وعجلت أنا وصاحبي فأخذنا مقاعدنا حيث أخذوا مقاعدهم. كل ذلك والفتاة على حال من الحزن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنا وأبوها ومَن حولها.

كان ذلك حتى أوفينا على القاهرة فحيل دونها. لم أعلم بعد ذلك شيئاً من أمر فاطمة لأني لم أستطع أن أعلم... رحمة الله وبركاته عليك يا فاطمة أنت أولى شهيدات الرأي الحر، والإيمان الوثيق.

لذلك كان دين المرأة - إذا طبعت عليه - أكثر وضحاً، وأوضح سناً، وأرسخ أصولاً، وأبعد عن عثرات الحيرة ونزغات الشيطان - من دين الرجل.

ولذلك كانت - إذا أُخذت به، ونشأت على حبه - أشد الناس عصمة في السر والعلانية، وأطهرهم صحيفة في المشهد والمغيب، وأبعدهم عن اقتراف المآثم، واجتراع المحارم، إذا سكنت السنة الزواجر، وهدأت عيون الرقباء.

إن ضلالاً أن تَعْمَدَ إلى الصبية فتعصبها بالشدة، وتقنعها بالهوان، فإنك إن فعلت هوّنت نفسها، وثلمت حسها، فلا تشعر بعدئذ بأوزار العار، ولا تبتئس بانثلام الشرف، والخير للعالم يومئذ أن تطوى صفحتها، وتودى بحياتها من أن تقذفه بها داء دوياً، وجرثومة وبيئة.

وإن محالاً أن تعمد إلى الأخلاق النظرية فتسوقها إليها قواعدَ يزحم بعضها بعضاً، وعظات ينهال بعضها على بعض، فإن ذلك مما يكدُّ ذهنها، ويثقل خاطرها وربما شقَّ عليها استظهارها، فأبغضتها وأبغضت ما حوتها.

ليس إلا الدين، فهو وحده الذي يملك زمام نفسها، وقوام أمرها، بما فيه من ذكر الله، ووصف جلاله وعظمته، وملكوته وجبروته، وعجيب صنعه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبديع آياته، وقدرته ورحمته، وناره وجنته، وأشباه ذلك مما يوافق سجيتها ويثير عاطفتها، ويزيد غرسها زكاء، ونفسها صفاء)[1]

يقول عفيفي:-

«وليس بغائتنا أن نقص عليك قصصاً مما يسوقه بعض كتب التربية الفرنسية دعماً لذلك الرأي وإعزازاً له:

قالوا: إن صبية في التاسعة من عمرها مَرِنت على الإساءة إلى أُمها، ولم تزدها إلا جفوة وعناداً، حتى لقد رمتها ذات عشية بقطعة من الخبز كانت في يدها! ذهلت الأم لذلك واضطربت. وخرجت لساعتها إلى مربية ابنتها بالمدرسة تشكو إليها بثها، وسوء صنيع ابنتها بها. فهدأت ثائرتها، وقالت لها: دعيني وإياها.

استهل الصباح، فدرجت الصبية إلى مدرستها. ودق ناقوس الكنيسة فغدا إليها التلميذات وهي معهن، ثم أخذت كل واحدة مكانها. وأقبلت المربية فجلست مطرقة صامتة، لا تقول شيئاً، ولا تفعل شيئاً. تطاول الوقت حتى أوشك أن ينتهي. ونشرت السكينة رواقها على البنات جميعاً، وأبى عليهن جلال المكان وهيبة المربية أن يكلمنها. ثم اعتزمت الكلام فكن جميعاً عيوناً شواخص إليها وقلوباً حوائم عليها، فانطلقت تقول:

بينكن صبية أغضبت الله !... وأخشى أن يشملنا جميعاً غضبه لوجودها فينا. أو تعلمن أيّ إثم اقترفت، وإلى أيّ هاوية من الخطيئة سقطت؟ إنها أهانت أمها !! فأما حديثها ووصف إهانتها فأنتن في غنى عنه، لأنه موجع

(١) المرأة في جاليتها وإسلامها ٢:٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مؤلم، وليس لمثلي أن يفوه به. فأنا أخجل أن أقرن بين يدي الله إلى صبية آثمة.

هنالك أخذت كل واحدة تفتش في ثوبها هل تجد بين حواشيه تلك الفتاة الآثمة؟ فأما من ذكرت لأمها قبلةً، أو اعتناقةً، أو دعوة بخير، فتلك الظافرة المبتهجة.

أما صبيتنا فقد ودَّت لو انفرجت الأرض فوارتها بين أحشائها. ولو وقفت إلى ذلك لتلمست المهرب من غضب الله، وإيلام الضمير فلا تجده.

أقامت الصبية نهارها، ولو أقامته على أنياب الأفاعي لكان أهون عليها وأروح لها مما لقيت. حتى إذا آذنت المدرسة بالإنصراف، خرجت وهي تتلفت في كل ناحية. فما كادت تنتهي إلى أمها حتى ارتمت مُكِبَّة عليها، تقبلها وتبللها بدموعها. ومنذ ذلك الحين أصبحت أسمى البنات أدباً، وأسمحهن خلقاً.

فيا أيها الماضون في تعليم البنت: وطنوا أنفسكم قبل أن تبدأوا أعمالكم، أن تجعلوا الدين علمها الخفاق على رأسها، وأكليلها المشرق فوق جبينها، وكوكبها المتألق في ظلمات الدهر، ومدلهمات الخطوب. وإلا فقدتم خلقها، وهو أعز ما ملكت يمينها. وهنالك لا تجدون العلم إلا مدرجة الشر، وسبيل الفساد»[1].

الإنحراف الفكري حول البنات:

وقد أخذ بعض الباحثين على العرب عدم رثاء البنات، وجل أفراد

(١) المرأة في جاهليتها وإسلامها ١٠: ٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المجتمع ليسوا بشعراء، ورثاء أفراد الأسرة قليل في المجتمع فرثاء الآباء قليل، ورثاء الأبناء قليل ولكن أقله رثاء البنات، وليس الأمر بذي بال لولا أن بعض الباحثين جعل من دراسته لهذه الظاهرة دليلا على اضطهاد المرأة أو ضعف المكانة. فإن قلة الشعر أو آراء بعض الشعراء لا تمثل تصويراً كاملاً للمجتمع.

وهذه من الظواهر الشائعة في الدراسات الحديثة، فنظروا لشعر مجموعة من الماجنين في العصر العباسي لا يتجاوزون عشرة شعراء وهم من الماجنين فجعلوهم يمثلون العصر العباسي الأول ويصفونه بالمجون، وهذا ضرب من الميل وعدم المنهجية، وكذلك الشأن في بعض الظواهر الأدبية الكثيرة، وألحقوا بهذه» رثاء البنات» ومن أقوالهم في ذلك

«ولكنها اتخذت مظهرا آخر من مظاهر الوأد، وهو الوأد العاطفي والاجتماعي، فتمنوا موت البنت، ورأوا في القبر خير بعل لها، وخير صهر لأبيها. وقد أورد القيرواني في زهر الآداب أبياتا تكشف عن رغبة بعض العرب في موت بناتهم واعتبارهم القبر خير بعل تزف إليه البنت، ومما أورده في هذا الباب قول عبيدالله بن عبدالله بن طاهر:

لكلِّ أبي بنتٍ يُرَجِّي بَقاؤُها ثلاثـ ـةَ أَصْهارٍ إذا ذُكِرَ الصِّهْرُ

فَبَيْتٌ يُغطيِّها وَبَعْلٌ يصونها وقَبْرٌ يواريها وَخيرُهما القَبْرُ

وقول عقيل بن علَّفة، وكان من أغير العرب:

إني وإنْ سِيقَ إليَّ المَهْرُ

ألفُ وعُبْدانٌ وذَوْدٌ عَشْرُ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أَحَبُّ أَصْهَـــارِي إليَّ القَـــبْـــرُ

إن هذين الشاعرين متعلقان بابنتيهما فهما يتوجسان خيفة عليهما حتى بعد الزواج فلسان حال كل منهما أنه لا ينفك عن التفكير فيها حتى يموت أو تموت فتاته[1].

ومما يندرج تحت هذا الباب تعزية ابن الرومي لعلي بن يحي عن ابنته، وقد ردد ابن الرومي الفكرة الشعبية الشائعة التي ترى أن القبر خير بعل للبنت، وخير صهر للرجل»[2] يقول من هذه القصيدة مخاطباً المعزى[3]:

لا تُبعدنْ كريمةً أودَعتَها ... صهراً من الأصْهارِ لا يُخزِيكا

إني لأرجو أن يكونَ صداقُها ... من جنة الفردوس ما يُرضيكا

لا تأسَيَنَّ لها فقدْ زوجَتها ... كفواً وضَمَّنَت الصَداقَ مليكا

نجد أن الباحث جعلها فكرة شعبية شائعة ومن أين له البرهان على هذا الحكم، فالشعبية تشير إلى شيوع الفكرة في عامة المجتمع غير أننا لم نجد إلا عند نفر من الشعراء تداعبهم في التعزية وحسب.

وفي القرن الرابع يردد كشاجم هذه الفكرة حين يعزي الشاعر

---

(١) الحسن القيرواني، زهر الآداب، تحقيق زكي مبارك (بيروت، دار الجيل ص٢، د ت، ٢/٢٥٩.

(٢) د. هبدالرحمن السماعيل، رثاء الزوجات في العصرين الأموي والعباسي ص٥ (مخطوط).

(٣) ديوان ابن الرومي، تحقيق وشرح عبدالأمير علي مهنا، بيروت، دار ومكتبة الهلال ١٤١١هـ-١٩٩١م ص١٤٠٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصنوبري في ابنته[1]:

أَتَـأسّـى" يـا أبـا بـكـرٍ ... لموتِ الحُـــــرّةِ البِكْرِ

وقـد زوجـتـهـا قـبـراً ... ومـا كـالقبـر من صهـر

فـتـاةٌ أُهْدِيَتْ فـيـه ... من الخِـدْرِ إلى القَـبْـر

فـقـابلْ نعـمـة اللّه ... الـتـي أولاك بـالـشـكـر

ونجد لهذه الأفكار صدى في لزوميات المعري حين يقول عن البنات ضمن قصيدة طويلة [2]:

ولسن بدافعاتٍ يومَ حربٍ ... ولا في غارةٍ مَتَغشّماتِ

ودَفْنٌ والحوادثُ فاجعاتٌ ... لإحداهنَّ إحدى المكرماتِ

وقد يَفْقُدنَ أزواجاً كراماً ... فَيَا لِلنَسْوةِ المتَأيِّمات

يلدنَ أعادياً ويكنَّ عاراً ... إذا أمْسينَ في المتَهَضَمَاتِ

في مثل هذا المجتمع الذي تشيع بين أفراده هذه الأفكار، ضاقت الدائرة حول المرأة، وضاق المجال الذي يستطيع الشاعر أن يتحرك فيه لرثائها، وقرنت بالطفل لضيق الكلام فيها كما يقول ابن رشيق القيرواني ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة؛ لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات، والقيرواني هنا يتحدث عن سياق أدبي نتج عن سياق اجتماعي رأينا ملامحه فيما سبق من نماذج شعرية، والسياقان في

(١) ديوان كشاجم ص ٧١ بيروت، المطبعة الأنسية ١٣١٣.

(٢) أبو العلاء المعري، اللزوميات ١: ١٥٧، بيروت- دار الكتب العلمية ط٢ ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحقيقة متلازمان، فالسياق الأدبي كما يقول محمد حافظ دياب صياغة تعبيرية سوسيولوجية للعلاقات الاجتماعية المتفاعلة والمتداخلة؛ وسبب ذلك أن الشاعر اعتاد أن يرثي الرجال بما كان يمدحهم به من خلال وصفات ظلت مقصورة على الرجل مثل الكرم والشجاعة، ويبكي على تلك الشمائل التي فقدت بفقد المرثي. ولم يعتد العربي أن يبكي امرأة بعد موتها وهو الذي كما رأينا يتمنى موتها ويراه أكرم نزال على الحرم»[1].

والواقع أن الظاهرة لم تشع وتتسع دائرتها، وإنما الذي جعل من الحبة قبة هو الباحث وأمثاله، نتيجة لأخذ عينة نادرة أصدر عليها حكماً شعبياً. وأمّا ضيق الكلام عن البنت فمثيله عن الابن، فقد قل الرثاء حوله، أمّا كون الأمر يتسع عند المدح فهذا أمر لا يعود لعاطفة المحبة ولا البنوة وإنما لأعمال الممدوح التي تقال عنه إن كان صدقاً وإن كذباً. ونحن نجد أن العمل هو الذي يوحي للشاعر، أما الأولاد فتكفي الأبيات أو الكلمات لتحسم الحزن وتشخصه. حتى الرثاء في الزعماء فإن الأبيات التي تمثل الحزن قليلة، وإن طول النفس يتأتى من الأعمال. ويروي القيرواني بعد ذلك قصة عن أبي العباس المبرد يقول فيها: دخل علينا ابن البهراني فأنشدنا:

لولا أُمَيمةُ لَمْ أجزعْ من العَدَم ولم أَجُبْ في الليالي حِنْدسَ الظُلَمَ

تَهوَى" حياتي وأَهْوَى" موتَها شفقاً والموتُ أكرمُ نزَّالٍ على الحُرَمِ

وكانت أميمة بنت أخيه، وكان قد تبناها، فهو كشف عن رغبة، بأنه يهوى موتها شفقة بها عن معاناة الحياة، وما تجلبه من تعاسة، ثم غابت غيبة

(١) رثاء الزوجات ٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فسألناه عنها فأنشد:

أمست أُمَيمةُ مغموراً بها الرَّجُمُ ... لدى صعيدٍ عليه التَّربُ مرتكمُ

قد كنت أخشى عليها أن يُؤخرها ... عني الحِمامُ فيُبدي وَجْهَهَا العَدَمُ

فالآن نمتُ فلا همٌّ يؤرِّقني ... تهدا العيونُ إذا ما أودتْ الحُرَمُ

للموتِ عندي أيادٍ لستُ أنكرُها ... أحيا سروراً وبي مما أتى ألَمُ

وهذا أشبه بالأوربي الذي قتل أسرته كاملة خشية عليهم من قيام الآخرة في نهاية القرن العشرين فالشذوذ الفكري أو الصرع موجود عند جميع الأمم ولا يقاس عليه بحال.

ورأى بعضهم أن بكاء النساء عجز يحط من قيمة الرجال؛ فهن لسن من زينة الحياة الدنيا التي ذكرها الله في القرآن، ولا يحملن سيفاً ولا يقدن جيشاً، بل إنهن يلدن الأعداء، ويورثن أموال آبائهن للأباعد من الناس، كما أنهن من حبائل الشيطان؛ فهن السبب في خروج آدم من الجنة، هذه النظرة والآراء البعيدة عن روح الإسلام وتعاليمه السمحة نجدها في قول البحتري في قصيدة يعزي بها أبا نهشل محمد بن حميد الطوسي عن ابنته، وهي أقرب في مضمونها إلى هجاء المرأة بشكل عام من تعزية تقال لرجل فقد ابنته. يقول البحتري في هذه القصيدة[1]:

أتُبكّي من لا ينازل بالسيفِ مشيحاً ولا يُهزّ اللواءَ

والفتى من رأى القبورَ لما طافَ به من بناته أكْفاءَ

(١) ديوان البحتري تحقيق حسن كامل الصيرفي ١: ٣٠٩ القاهرة -دار المعارف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لسنَ مِنْ زينةِ الحياةِ كعدِّ الله منها الأموالَ والأبناءَ
قد ولدنَ الأعداء قدمًا وورّثنَ التلادَ الأقاصيَ البُعَداءَ
لم يئد كُثرَهن قيسُ تميمٍ عَيْلةً بَلْ حَمَيّة وإباء
وشعيب مِنْ أجْلِهنَّ رأى الوحدةَ ضعفاً فاستأجر الأنبياءَ
واستزلّ الشيطانُ آدمَ في الجنة لمّا أغرى به حَوّاءَ
تلفتْ إلى القبائلِ فانظرْ أُمهاتٍ يُنْسَبْنَ أَمْ آباءَ
ولَعَمْري ما العجزُ عنديَ إلا أنْ تبَيتَ الرجالُ تبكي النساءَ

إذن فإن الانحراف في العواطف أو الفكر أو السلوك لا يمثل المجتمع بل لا يمثل شريحة وإنما يمثل رأياً فردياً، تدفعه دوافعه من أهمها التعزية. ومنها تندر الشعراء، ومنها الانحراف الفكري كما هو عند المعري، وهذه دوافع واهية لا تبرر تطرف الشعراء في تمني الموت للبنات.

وقلة الشعر في البنات هو جزء من حلقة شعرية ناقصة في الشعر العربي تلك هي الأغراض الاجتماعية فهي قليلة وجلها نادر.

ونحن لما نقرأ شعر النساء لا نجد رثاء للبنات وإنما نجد رثاء أبنائهن وأخواتهن وأزواجهن، ولا نستطيع أن نقول: إن المرأة ليست لها عاطفة تجاه ابنتها[1].

ويقول البحتري من قصيدة أخرى يعزي فيها أبا حسن بن الفرات عن ابنته[2]:

(١) انظر: المرأة في جاهليتها وإسلامها ٣: ٢١٨.

(٢) ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي ١: ٣٠٩ القاهرة -دار المعارف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومِنْ نِعَمِ الله لاشكَّ فيه بقاءُ البنين ومـوتُ البنات

وعصرنا بل أيامنا هذه تحكي معاناة الأباء من تربية الأبناء، فموت الأبناء المنحرفين من نعم الله إن لم يحتسب الأب الأجر عند الله.

هذه نظرة غير منصفة من الشاعر، فالبنات لهن وظائفهن في الحياة تعادل وظائف الرجال إن لم تفقها، فالرجل يجاهد بالسيف، وهي تجاهد بالنفس وجهاد النفس أعظم، ووظيفة الحمل أعظم من حمل السيف، وتربية الأطفال جهاد نفسي، وعطاء روحي، وحنان متدفق وهنّ لم يلدن الأعداء بل ولدن الأصفياء الخلصاء، فكان التقارب والتواصل بالأرحام له دوره في تصافي الأنفس، وتصافي القبائل والأسر. وكم من الشعراء بل من الناس من تربى بين أخوال.

والمرأة لم تكن سبباً في نزول آدم من الجنة إنما الإغراء للرجل والمرأقمعاً وتعليق جريمة التكفير والهجرة، إنما هي نحلة فلسفية ثم طرأت بالتحريف على الديانة النصرانية. وهاهم يبكون البنات رغم ما يحكيه الشعراء ويتفنون به، فليس من العار أن يبكي الرجال النساء بل يخفى أو هو من العجز الغريزي عن البكاء وكثير من الرجال لا يظهرون البكاء على أبنائهم ولا على أي عزيز تجلداً وصبراً كما يقول جرير:

«لولا الحياء لهاجني استعبار» فالحياء المنطلق من التجلد هو الحاجز لا العجز عند الأغلب.

وهذا الشاعر الفارس العربي أبو فراس الحمداني يجل ابنته، ويرفع منزلتها، ويؤثرها ببث أشجانه، مع الإشارة بالوعظ فهو يحافظ على سترها حتى في رزئها به، فحين تكون النياحة تكون من وراء حجاب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أبُنَـتَّي لا تحـــــزني ! كـــلُّ الأنـــام إلـــى ذهـــاب

أبُنَيَّـتي، صـبـراً جـمـيـ ـلاً للجليلِ من المُصـــاب

نُوحي عليَّ بحـــسـرةٍ! من خلف سترك والحجاب

قُـــولي إذا نـاديـتـني وعـــيـيتُ من رد الجـواب:

زينُ الشـبـاب، أبو فـرا سٍ، لم يُمَـتـع بالشـبـاب![1]

والشاعرصالح العمري يعارض قصيدة الشاعر نزار قباني (أنا أنثى) بقصيدة تكشف عن رؤية إسلامية تحفظ للمرأة وظيفتها وكرامتها، وترفع بها إلى مكانة سامية تجلو منزلته في قلوب الشعراء من أبناء الجزيرة:

أنا أنثى: بأوراقٍ مطهرةٍ

أنا أنثى بأوراقٍ معطرةٍ

أنا أنثى بأوراقٍ منمقةٍ

غداة أتيت للدنيا وتسقى الحبُ تربتها

وجدت الله كرّمني وشمس العطف تغمرها

وأنزل رحمةً حولي وقد صيّنت محاسنها

فأضحى الكل يرحمني فلا أيدٍ تلامسها

فتكويني به ضعف فلست كزهرة الدمن

فسخر من يدللني * * *

(١) إبو فراس الحمداني (الديوان) تحقيق إبراهيم السامرائي ٣٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويرعاني ويحفظني
فصرت أعيش في رغدِ
منعمةً مدللةَ
ولست أعيش مهملة
فأشكو ظلمة الزمنِ
أنا أنثى
ففي أهلي
أعيش كزهرة نبتت
ويفرح إن رأى فرحي
ويحزن إن رأى حزني
ويسكب من مشاعرهِ
صفاء الحبِّ يُمطرني
ويسكب من مشاعره
صفاء الحبِّ يُمطرني

* * *

شقائي ليس يرضيهِ
وألهو بين كفّيه
وعند النوم يأتيني
يغطيني بجفنيه
وعند الصبح قبلتهُ

أنا أنثى
أبي يبدو
عظيماً في محبته
عظيماً في تعامله
رحيماً بي يدللني
على كتفيه يحملني
إذا سقطت على خدي
دموعٌ فهو يمسحها
على الجدران رقصتها
وبسمةُ لؤلؤي تحكي
زوايا البيت قصتها
كبرت وعفتي كبرتْ
كمسلمةٍ محافظةٍ
تخاف الله تعبدهُ
وتخشى ثورة الفتنِ

* * *

سأرقب خفقة العصفورِ
في ساحات أحلامي
يسافر في فضاءاتي
يناغي ثغر أيامي

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أضواءً إلى الأتي بلا جملٍ نزارية[1].

أنا الأمطارُ

التعليم المعاصر للفتاة:

صحب تعليم المرأة نشأة الإسلام استهلالاً بخديجة وعائشة رضي الله عنهما في بيت النبوة وتواصل التعليم للمرأة وأُخذ العلم عنها فمنهن العالمات العابدات الحافظات للقرآن الكريم ومنهن من تصدر للحديث وعلوم الشرع والنحو ومنهن من تحلق حولهن طلبة العلم ويمنحن الإجازات العلمية، وتعليمهن يغلب عليه مع الكتاتيب واشترط العلماء شروطاً على معلم الصبيان، ومنها أن يفصل البنات عن البنين.

فتارة كان تعليم الفتاة له كتاتيبه الخاصة به، وتارة يكون مختلطاً مع الأطفال مع توزيع البنات في جهة متباعدة عن الذكور وكثير منهن يتواصلن مع العلم وحلقاته، حتى الجواري لهن نصيب من التعليم، وكتب الأدب تحكي عدداً من طرائفهن. وتروى كثيراً من أشعارهن، ومروياتهن من الشعر.

ولما أطل عصر النهضة بادروا إلى فتح المدارس وأولهن مدرسة (السويقية) أسستها إحدى زوجات إسماعيل باشا عام ١٨٧٣م، ودعا رجال الفكر إلى تعليمها مع التقيد بالحشمة والزي الشرعي، والابتعاد عن الاختلاط يقول حافظ إبراهيم.

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

ومصطفى الغلاييني ينظم في ابنته فاطمة قصيدة يدعوها فيها إلى

(١) وصلتني صورة القصيدة في ١/٥/١٤٢٠هـ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

طلب العلم ويدعو الآباء إلى تعليم فتياتهم يقول في ابنته عام ١٩٢٢م.

أنا بنت ذات عقل ... أنا من خير البنات

أحفظ الدرس وأسعى ... للخصال الفاضلات

وأُطيعُ الأُمَّ دَوْمًا ... فَهْيَ رَوْضُ البَرَكات

إنَّما الخَيْرَاتُ تُجْنَى ... مِنْ رِضاءِ الأُمَّهاتِ

إنْ أَكُنْ ذا اليوم طِفْلاً ... في عِدَادِ القَاصِرَاتِ

فَغَداً بالعِلْمِ أَرْقَى ... في رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ

كلُّ مَنْ تَفْعَلُ مِثْلِي ... تَجْتَنِي وَرْدَ الحَيَاةِ

فاجْتَهِدَن اليَوْمَ تَجْنِينَ ... لَذِيذَ الثَّمَرَاتِ

إنَّما العِلمُ سِرَاجٌ ... وَهُدًى في الظُّلُمَاتِ

وَطَرِيقٌ لِلْمَعَالي ... والأَمَاني الغَالِيَاتِ

وهو يحث الآباء على تعليم بناتهم كما يسعون إلى تعليم أبنائهم، فالعلم من حق الجميع وهو يهذب الفتاة كما يهذب الفتى بل يؤدي إلى رقي الشعب والمجتمع:

أيُّها الآباءُ يا أَهْلُ ... النُّهَى والمَكْرُمَاتِ

أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ فَتْيَانِ ... الحِمَى والفَتَيَاتِ ؟

هَذِّبُوا بالعِلْمِ والآدابِ ... أَخْلاقَ الفَتَاةِ

وَأَنِيرُوا بالهُدَى ألْبَابَ ... هُذي النَّاشِئَاتِ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لَيْسَ يَرْقَى الشَّعْبُ إلاَّ بالبَنَاتِ الصَّالِحَاتِ[1]

وفي جل العالم الإسلامي تخصص مدارس للبنات ما عدا التعليم الجامعي فإن جل البلاد الإسلامية والعربية يكون فيها التعليم الجامعي مختلطاً ما عد المملكة العربية السعودية التي لم يختلط فيها أبداً وكذلك جامعة الأزهر فإن للبنات كلياتها الخاصة، وبعض المدارس الخاصة، وكذلك ما طرأ على التعليم في بعض البلدان الإسلامية.

تعليم الفتاة في المملكة العربية السعودية:

القضية التعليمية استحوذت على عقول الكثير من الأدباء في بلادنا، فدعوا إليها، ونظروا لها، وعالجوا مشاكلها، ورسموا خططها في مقالات متعددة. ومن ذلك تعليم المرأة، فقد طرح الأدباء الفكرة في وسائل الإعلام. فهذا أحمد السباعي ينادي بتعليم المرأة في مقالة في كتاب صدر عام ١٣٥٥هـ، ويعالج القضية بقوله:

«يتطاول بعضنا فينادي بالثبور، ويصم أنصار الفكرة بوصمة التفرنج والخروج على الدين، وينسى من أن مبادئ دينه فريضة العلم على المسلم والمسلمة، ثم يتناسى تلك الصفحات من التاريخ المفعمة بأخبار خطب السيدات العربيات المسلمات المتعلمات».

ويقول: «وتهلع قلوب فريق عندما تحدثه عن مدارس البنات كأن بدعا من الأمر أن يكون للبنات مدارس، وما مدارس البنات سوى كتاتيب (الفقيهات) القائمات اليوم، مع تعديل في طرقها الملتوية، وأساليبها،

(١) الديوان: ٢٠٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقواعدها الضاربة في الفوضى إلى أبعد حد، وسن مناهج جديدة تدرج بالعقل فتربيه تربية صحيحة، وتعده لتفهم مبادىء الإسلام على حقائقها، ومحاربة الخرافات والخزعبلات... ومن ثم تهيئهن للحياة العائلية، وتعدهن لسياسة البيت، وتخصصهن في أصول التربية القائمة على أسس من المنطق والعقل»[1].

وأمين العقيل عالج قضية التعليم كاملة وطرائق التدريس والمناهج[2].

وقد بادر الكتاب والشعراء إلى الدعوة إلى تعليم الفتاة ومن الشعراء عبدالله بن خميس وحسين سراج، وإبراهيم علاف، وكلهم خاطبوا الملك فهد عندما تولى وزارة المعارف ، فدعوه إلى افتتاح مدارس لتعليم الفتاة، يقول عبدالله بن خميس:

يا نصير العلم هل من شرعة ... تمنع التعليم عن ذات الخبا

إنَّها في ذاتِها مدرسةٌ ... إنْ خبيئاً أنجَبتْ أوْ طيِّبا

فمعاذ الله أن تُبقى بنا ... دميةً للهوِ فينا تُجتَبى

وإذا ما ثُقفت؛ فتياتنا ... أعلنوا ضدَّ النساء الحَرْبا

وانبرى كل يقاسي دهرَه ... ويعيشُ النشءُ فينا أعْزَبا

كيفَ يرضَى عالِمٌ جاهلةً ... تقلبُ البيتَ جحيماً مُلْهَبا

يخرجُ الأطفالُ منها صورةً ... إنْ ينالوا العلمَ ضلُّوا الأدبَا

(١) محمد عبدالمقصود، عبدالله بلخير: وحي الصحراء ٩٣، ٩٤، ٩٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ١٣٨ وما بعدها..

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهو يدعو إلى الالتزام الشرعي، وإلى تعليمها العلم المفيد لها ولأولادها، ولتحفظ دينها، ودنياها وتتجمل بالأخلاق الحميدة، وتتقن الأعمال الصالحة وتكون ذات وعي ودراية.

أنا لا أدعو لأنْ نُخرجَها ... لتُحاذِي بالرِّجالِ المنكبا

أوْ تنادِي بعقوقٍ أو تَرَى ... هتكت بينَ الرجال الحُجُبا

إنما الإفراطُ فيها خَطَلٌ ... وكذا التفريطُ في ما وجَبَا

سُنة الإسلام فيها وَسَطٌ ... شاءَ مَن يبغِي التَّعدّي أم أبَى

يانصيرَ العلْمِ من أدوائِه ... بيننَا فَقْدُ المربِي المجتَبى

لا يُربّى النشْءَ إلاّ حاذقٌ ... ليس مَن أملَى الهجاءِ أوْكتَبَا[1].

وأستاذي الدكتور محمد بن حسين يمثل نظرة أبناء الوطن للفتاة فهو داع إلى تعليمها، لكي يكون لها سلاحاً للمستقبل، وهو جمالها الحقيقي، ومع أنه شهد بداية التعليم في بلادنا إلا إنه لم يقتصر على مراحله الأولى بل يدفع ابنته إلى مواصلة التحصيل العلمي، ونيل أعلى مراحلة، ويدعوها إلى التأدب بآداب العلم، وملاحقة مدرساتها، وحسن الاستماع لهن، فهو مفتاح العلم.

أَبُنيتي علم الفتاة سلاحها ... ويُعدها لتكون أم المقبل

أبُنيتي حُلق الفتاة جمالها ... ويزينُها وهو الحلا وهي الحُلي

فإذا التقى علمُ وخُلقُ فاضلٌ ... سمحت لك الدنيا بكل مؤملِ

(١) على ربى اليمان ٥٦٥

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والعلم والأخلاق ما يوصي به ... دين الإله، بنُيَّتي فتأملي

أولاك، أو أخراك ما مفتاحها ... إلا التقى والعلم والخلق الجلي

أبُنيتي والعلم ما مفتاحه ... إلا معلمة به لم تبخلِ

فلها أشكري ولها أطيعي دائماً ... تعطيك علماً بالسلوك مُجمَلِ

أبُنيتي لا تغفلي عما به ... جاءت مدرسة تقول: الا أقبلي

فخذي علوماً لا يغيض نميرُها ... من فكرها، والجهل حظ المهملِ

وأنا أراك نجيبة تواقةً ... للعلم فاسعى نحوه وتجملي

لاتبخلي بالوقت في تحصيلة ... أو تتركي فُرص النجاح الأمثل[1]

والأب يعدُّ ابنته كي تحتل منزلة أم المستقبل، فهو يحرص على تربيتها وتوجيهها، والتعاون مع مدارسها كي تنال من العلم أو تكسب الأخلاق الحميدة، وتستعد لمتاعب الحياة المستقبلية يقول الدكتور محمد بن سعد بن حسين:-

يا زهيرات فصول المعهد ... يافتاة اليوم يا أم الغدِ

بك علقنا الأماني فانهضي ... وأمليء الوقت نشاطاً تحمدي

إن للعلم حياضاً أشرعت ... فانهلي منه كريم المورد

والزمي الأخلاق فالأخلاق خير ... وتحلي بالعفاف تسعدي

(١) أصداء وأنداء ٩٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

زينة المرأة في عفتها فاسمعي النصح عسى أن ترشدي

أمهات الجيل أنتن فإن فاتكن العلم يابؤس الغد![1]

وهذا طاهر زمخشري[2] (يصدح بشعر في مستهل تعليم البنات بقصيدة:

من وراء الخمار ألمح نورا فاض بين السطور يجري نميرا

في(حراء) الغراء في الأمل المشـ ـرق أهدى إلى الحياة بكورا

والتباشير في الملاءات لفت في الثنايا من الخرائد حورا

سبكته حرائر تخرس الورق ومنها الصدى يروي البحورا

والقوافي مرجعات لما نمقن سحرا ورونقا وزهورا

فليس الغاية المظهر بالاحتجاب،وإنما غاية التعليم أن يشرعن في طلب العلم النافع فيبدعن ويبتكرن، ويتزين بالأخلاق الفاضلة، ويجتنبن المظاهر السيئة، فينمو الوعي، والعقل، كي تختار الفتاة، ما يلائم دينها ومصلحتها وصالح مجتمعها، وكي تمارس حياتها المنزلية بوعي وعلم، وقدرة على التدبير المنزلي، وأن يكون لهن دور في الحياة، ينتمي إلى دور أسلافهن من نساء الصحابة كعائشة وأسماء، فقد كانت أسماء ذات النطاقين لها دور كبير في أخفاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم عند الهجرة.

(١) المرجع السابق ٩٨.

(٢) ولد عام ١٣٣٢هـ، مكة المكرمة، شاعر صدر شعره في مجموعات شعرية، من شعراء المملكة العربية السعودية، ينال جائزة الدولة التقديرية، مات عام ١٤٠٧هـ، انظر: الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي ١٣٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من وراء الخمار ألمح إشعاعا أعاد الماضي إلينا منيرا

مشرق الصفحتين يزهو بمن قمن ينافسن بالعلوم الذكورا

ما تزين بالذي يكسب الإثم مجونا وبهرجا وغرورا

بل تحلين بالذي يجعل الدور جنانا والمحصنات بدورا

وتمنطقن بالذي زان أسماء فكانت أولى الشموس ظهورا

عرفت دورها الخطير وأدته فكانت للصاحبين نصيرا

تتوقى العدة قد أشهروا الموت وتخطو على القتاد وئيرا

ثم تمشي للغار في قمة التل، وتجتاز بالثبات الوعورا

تحمل الزاد للنبي وخدن عاش بالحب عند طه الأثيرا

وهو أصل لها فأكرم بفرع طاب من الجني وطابت جذورا

والحميراء أختها، وهما الصنوان طهورا وعفة وعبيرا[1]

وتعليم الفتاة أُستهل رسمياً عام ١٣٨٠هـ، ولم يتهيأ لها الالتحاق بالجامعة إلا متأخراً ؛ لقلة المتقدمات لها، مما جعل الشاعر محمد المغربي[2] يبعث بابنته أميمة إلى جامعة كليفورنيا، والقصيدة تفيض بوجدان الأب، فهي بعض من القلب، بل هي دائمة الحضور:

---

(١) مجموعة النيل ٤٩٧.

(٢) محمد علي المغربي، ولد بجدة عام ١٣٣٢هـ، رأس تحرير (صوت الحجاز) اتجه نحو التجارة والأعمال الحرة، له موسسة ضخمة، وله نشاط علمي منها التأليف عن (أعلام الحجاز) في ثلاثة مجلدات، ويكتب الرباعيات مات عام ١٤١٧هـ الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي ١٣٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

استودع الله ما أغلى وديعته ... بعضاً من القلب تشجيني مواجعه

لم يعرف البين لم يخبر مواجده ... حتى استحر فما ترقى مدامعه

فارقته وهو ملء المقلتين رضا ... وملء قلبي وما ضمت نوازعه

هذا القلب الذي يتفطر وجداً على ابنته، والذي تثقله غربتها وبعدها، وما تحمله من إرهاق، ومما تعانيه الفتاة البعيدة عن والديها، فهذه الأبيات تمثل قلب الأب المشفق على ابنته، ولولا الأمل الذي يعقده عليها لتكون رائدة لبنات جيلها في ميدان العلم لما بعث بها إلى تلك الديار النائية وهو يوصيها بتقوى الله وطاعته، والمحافظة على إيمانها وسلوكها.

كم نازح وشغاف القلب مسكنه ... وحاضر كاللقى لم يدر موضعه

يا من تحملت منه بعد فرقته ... شوقي إليه وأشواقاً تنازعه

ومن تمنيت أن تشفى مواجعه ... لو كان يحملها قلبي وتنفعه

ياحبة القلب يا أغلى لآلئه ... هذا الدعاء، لباب الله نرفعه

يصونك الله ترعاك عنايته ... تهديك في الدرب عيناه ومسمعه

تقود يمناه يمناك وراحته ... مبسوطة لك بالتوفيق أودعه

فلا تراعي وعين الله ساهرة ... من ذا يراع وباب الله يمنعه

يا زهرة في رياض الدرس ناضرة ... تهفو إلى العلم تُصبيها روائعه

عبي من العلم أروي من مناهله ... فؤادك الحر - إن العلم ينفعه

شقي إلى المجد دربا أنت رائده ... لنخبة من بنات العرب مشرعه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حتى تعدن إلى أحضان أمتكم فتحا يدل به الرائي وسامعه

تنهضن بالوطن الغالي عن سنن من الفضائل تهدينا مطالعه

الدين والعلم والأخلاق أعمدة ثلاثة وعماد البيت يرفعه

فاستمسكي بعمود الله واستبقي إلى مكارم. هذا المجد أجمعه[1]

في أول حياة تعليم المرأة كان هناك اندفاع قوي، عملت وسائل الأعلام - لا سيما التمثيل منها - على بروز هذه المغالاة، فأخذت تلك الوسائل ترسخ فكرة الجامعة أولاً، ثم الزواج ثانياً، فأخذت الفكرة تغرس في نفوس الكثير.

يقول إبراهيم خليل علاف:

وشبكة التخرج تنأى عن التزوج

بكفها حقيبة ريبة التدرج

كطفلة عزيزة بصدرها الممسوج

هي الربيع موكبا قد عف عن تبرج

يغنيك حسنا بعضه وملتقى التأرج

اجمل بها من طليعة تسلحت بأدعج

فيها الحياء حالم بخدم المضرج

والطهر هب شامخا بأنفها المدرج

ويقول:

(١) المنهل، ع٥ السنة ٣٥ مج ٣٠ جمادى الأولى ١٣٨٩هـ ص ٧٠٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ما أنت إلا واحة ... محاطة بعوسج

أزهارها أثمارها ... تعصي على التدحرج

موفورة مذخورة ... لمستطاب المنهج[1]

فنحن لا نشك في نزاهة الجامعية، ولا ريب في ذلك .ومن الأفضل أن تتاح لها دراسة منفصلة، وفي كليات وجامعات تجعل تدريس المرأة منفصلاً. أما إعجاب الشاعر بإعراضها عن الزواج، ذلك في عام ١٣٨١هـ، في مستهل التعليم فكان نتيجة ذلك أن برزت ظاهرة العنوسة لأن مجتمعنا يحرص على الزواج مبكراً، والجامعية لا تنهى دراستها إلا بعد أن تتجاوز العشرين، الأمر الذي أوجد عدداً من العانسات.

والذي أراه أن لا تعارض بين الجامعة والزواج. فالأولى أن الفتاة إذا بلغت سن الزواج فعليها أن تتزوج من يرضى وليها دينه وأمانته، مع المحافظة على مواصلة الدراسة. أما إذا وقفت مواصلة الدراسة في طريق الزواج فهو أولى.

وقد طرحت القضية على بساط البحث مرارا في الصحف المحلية، فمنهم من يرى أن سبب العزوف عن الجامعيات يتأتى من جانبهن ؛ لأنهن يرغبن في الكفء الثقافي، ولأن نظرة التعالي عمن لم يحصل على مستواهن تتبلور في أذهانهن.

لكن الواقع يثبت أن هذه حالات فردية، وليست بشائعة فقد أقبل الشباب على الزواج لكثرة المتكافئين ثقافياً، ولأن الجامعية لم تلزم نفسها

(١) الديوان: ٣٢٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالجامعي، للوعي الذي تنامى في المجتمع. وفي سائر الأحوال فقد أخذت المرأة السعودية على عاتقها القيام بالعمل التعليمي للبناء في جل شأنه، كالعمل المنزلي، والتربية. فالقادرة على الوفاق بين هذه الأمور هي تلك التي تنال الحياة الزوجية السعيدة.

ونتيجة لهذا الوعي وتأخر التأهيل الجامعي إلى ما بعد العشرين فإن كثيراً من الفتيات يتزوجن في المراحل الجامعية الأولى ثم يكملن دراستهن، فتظفر بالحسنيين معاً.

والشاعر الفيفي[1] يصور لنا حياة الطالبة التي التحقت بالدرس والتحصيل بافتتاح رئاسة تعليم البنات عام ١٣٨١هـ، وقد دأبت على مواصلة التعليم في مثابرة وجد، وأخلصت لطلب العلم، في عفاف وطهر، وهو يوضح روح التنافس والانتماء إلى الدين والعادات السليمة:

جمعت خير الصفات ... وتحلت بالثبات

شمرت عن ساعديها ... فأتت بالمعجزات

ومشت في الدرب سعيا ... رغم كل العقبات

قطعت شوطاً بعيدا ... بالجهود الخيرات

قالت الجهل سأرميـ ... ـه ببحر الظلمات

أطلب العلم بعزمي ... واجتهادي وثباتي

وإذا أهملت يوما ... في أداء الواجبات

(١) علي بن حسين الفيفي، شاعر يعمل بوزارة الدفاع، من مؤسسي نادي الطائف الأدبي، صدر له: أجراس، ورحلة العمر، وأزهار، والذكريات، وزائر المساء، انظر: معجم الأدباء والكتاب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومضى وقتي هباء في سماع الأغنيات
ودخلت الفصل كالعميا ء بين المبصرات
دون أن أهتم بالدر س اهتمامي بالصلاة

فهو يشير إلى فضيلة تعليم المرأة فقد كانت تقضي وقتها في ملل أو سماع لهو وطرب، لكنها اليوم تحرص على تنظيم وقتها، فهي تثابر على حل الواجبات المدرسية، وحفظ المطلوب حفظه ومعاودة المادة من أجل الامتحان خشية الإخفاق الذي يهز كيان الفتاة وأسرتها ، وما أشد وقعه عليهن !!، وكذلك تتعلم أمور دينها ودنياها يقول على لسان ابنته:

وأتى يوم امتحاني في عداد الراسبات
وبكت أمي وفي عيني مئات العبرات
ورأيت الحزن في وجه أبي والأخوات
أي معنى لوجودي وأي معنى لحياتي
غير أني سوف أبقى قدوة للطالبات
وأريهن بأني من خيار الفتيات
وبأخلاقي وعلمي وعفاف المؤمنات
وحياتي وابتعادي عن جميع الشبهات
سوف أحظى باحترام الناس في كل الجهات[1]

(١) الفيفي: رحلة العمر ١٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهو يدرك أن العلم ينمو بجانبه الخلق الفاضل، الذي يقوم على الحياء والعمل الصالح والابتعاد عن الشبهات، حتى تحظى بالتقدير والثناء. قيلت هذه القصيدة بعد أكثر من عشر سنوات من بداية تعليم البنات، وبعد أن رأى الشاعر معالم نهضة التعليم في البلاد، وقد اقتنع الجميع بتعليم فتياتهم، وازدهرت الأحياء بالمدارس. والآن تتناثر مدارس البنات من الابتدائية والمتوسطة والثانوية في أحياء المدن والقرى في تصاميم مطابقة للعمارة الإسلامية، وبتنظيم يمنع الاختلاط، فلا تخرج الفتاة إلا مع ولي أمرها. ويتفرع من الرئاسة وكالة الكليات، التي افتتحت عدداً من الكليات في مدن المملكة أشبه بالجامعات الصغيرة، وهناك عدد من كليات إعداد المعلمات أيضاً إلى جانب التحاق الفتاة بالجامعات في أقسام خاصة بهن.

ووصف الشاعر صخب الأطفال في المنازل، والتنافس بين الأخوات، وما يثيرهن ويؤدي إلى الصراع والتنافس ، ثم يصور حالتهن في الصباح عند الاستعداد لليوم الدراسي، فهذه تُسرِّح شعرها، وهذه تبحث عن حذائها، وهذه تشتم أختها وغيره مما يتبرم منه الأب والأم في حينه لكنه يستلذ به بعد ذهابه يقول حمزه شحاته[1]:

وكما تركت البيت مازالا ... قلقاً ، وأعباء ، وأطفالا،

و «معاركاً» بين الصغار غد ... حُلُم النَظام بهنّ أطلالا

أخذت كتابي ضيَّعتْ قلمي ... شدّت يدي، قفزت على ظهري

ذاتُ الحياة... وربما اختلفتْ ... عما كرهت، ونحن لا ندري

(١) الديوان ٢٣٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فإذا الصباح أُطلَّ خضناها ... حرباً يكون وقودها أختي

هُدى تقول: حذاؤها ضاعا ... زُلفى تسائلُ: أين مريلتي؟

وسهام تبحث عن حقيبتها ... وتصيحُ لبلى: لم أجد قلمي

فتجيبها نجلا بدمعتها ... وأن صحوتُ فلم أجد كتبي

فإذا انصرفن تقوم معركة ... ويجدُ أهل البيت في الطلب

والشاعر إبراهيم السبيل يكشف عن أسلوب التربية التعاوني بين الأسرة والمدرسة فإنه يؤدي إلى تكامل الرسالة العلمية للأولاد: «هذه الأبيات كتبتها تعليقاً على تقرير ابنتي هناء عن مستواها الدراسي في الصف الثالث المتوسط عام ١٤٠٣هـ:

البنت تسعد بالعلوم ... وبالفنون حياتها

فإذا تعاون بيتها ... وتعاونت «أبلاتها»

وإذا تضافرت الجهود ... تحققت غاياتها

وهناء في تلك الجهود ... تكاملت درجاتها

فالشكر مني للجميع ... ومن هناءٍ دعواتُها[1]

والسبيل يصور تعليم الفتاة خارج الوطن عندما تُجبر على ذلك مع أبيها في عمله أو مع زوجها في بعثته فإن اللغة تعترضها، والحجاب يزيد غربتها

(١) إبراهيم السبيل، نقوش على صفحة المجتمع ٩٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بين السفور في تلك البلاد، يقول عن ابنته وفاء[1] حين دخلت مدرسة اللغات:

خرجت وفاء بسرعة ... وتوجهت للمدرسة
وتكعبرت بحجابها ... ملفوفةً متدسدسة
كم أرعبت من حولها ... من طالب ومدرسة
قد حذرفوا من خوفهم ... وبدا عليهم وسوسة
وبلكنة شرقية ... وبلهجة متحوسة
قد كان بدءُ كلامها ... في الفصل مثل البريسة
إن خوطبت من بينهم ... بدأت بضحك ممرسة
عند الجواب شفاهه ... مقفولة ومدبسة
لكنها والحق أضحت ... في الدراسة كيسه
وتطورت بحديثها ... فحديثها ما أسلسه
حتى استحقت أن تكون ... على الجميع الريسه[2]

وأحمد شوقي يرى أن العالم شرس محارب مما جعله يدعو ابنته لحمل اليندقية وأن تتعلم وقت الحاجة إليها لترفعا في وجه المعتدي:

ولي طِفلةٌ جازتْ السَّنَتَيْنِ ... كبعْضِ الملائِكِ أوْ أطْهَرُ
بعَيْنينِ في مِثل لَوْنِ السَّماءِ ... وسِنَّيْنِ يا حَبَّذَا الجوْهَرُ

(١) حصلت على درجة الدكتوراه، وهي عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٢) إبراهيم السبيل، نقوش على صفحة المجتمع ١٠٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أتتني تسألني لعبة ... لتكسرها ضمن ما تكسر
فقلتُ لها أيُّها الملاكُ ... تحبُّ السّلامَ ولا أُنْكِرُ
ولكنَّ قَبْلَكَ خابَ المسيحُ ... وباءَ بمَنْشُورِهِ القَيْصرُ
فلا تَرْجُ سِلْماً مَن العالمينَ ... فإنَّ السِّباعَ كما تُفْطَرُ
ومَنْ يَعْدِمِ الظُّفْرَ بينَ الذِّئابِ ... فإنَّ الذئاب به تَظْفَرُ
فإنْ شئتَ تحْيا حياةَ الكِبار ... يؤَمِّلكُ الكَلُّ أو يَحْذَرُ...
فخُذ هاك (بُنْدُقة) نارُها ... سلامٌ عليكَ إذا تُسْعَرُ
لعَلَّكَ تألَفُها في الصِّبَا ... وتخلُفُها كُلَّما تَكبَرُ
ففيها الحياةُ لمن حازها ... وفيها السّعادةُ والمَفْخَرُ
وفيها السلامُ الوَطِيدُ البناءِ ... لمن آثَرَ السِّلْمَ أو يُؤْثِرُ
فلوبيلُ مُمْسِكة مَوْزَرا ... ولوبيلُ تُمسِكُها مَوْزَرُ[1]
أجابَتْ وما النُّطقُ في وسْعِها ... ولكنّها العَيْنُ قد تُخْبِرُ
تقول: عَجيبٌ كلامُكَ لي ... أبالشرِّ يا والدي تأمُرُ

تزينُ لبِنْتِك حبَّ الحُروبِ ... وحُبُّ السلام بها أجدر
وأنتَ امْرؤ لا تُحبُّ الأذى ... ولا تَبتغيه ولا تأمُرُ
فقلتُ: لأمْرٍ ضَلَلتْ السبيلَ ... وربَّ أخي ضَلَّةٍ يُعْذَرُ
فلوجيء بالرسْلِ في واحدٍ ... وبالكُتْبِ في صفحةٍ تنشر
وبالأوَّلِين وما قدَّموا ... وبالآخِرينَ وما أخَّروا

(١) لوبيل: اسم تدلل به أمينة: نوع من البنادق سريع الطلقات كان له شهرة قبل الحرب الحاضرة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لينهضَ ما بينهم خاطبا ... على العرشِ نص له منبر
يقولُ: «السلامُ» يُحبُّ السلامَ ... ويأجُركم عنه ما يَأجُرُ...
لَصُمَّ العبادُ فلم يسمَعوا ... وكُفَّ العِبادُ فلمْ يُبْصِرُوا[1]

والذي ينبغي أن تكون الفتاة على منهجية عقلية قابلة للتغيرات والتطورات فالدنيا لا تدوم على حال، فإذا ما توجست الفتاة للغيب، وعدت العدة لها فكرياً وعملياً فإن ذلك يخفف الصدمات، ويأخذ بها إلى شاطئ الأمان فلتدخر في الرخاء لأيام الشدائد، ولتُجمعْ لها مدخرا يعينها على صروف الحياة.

الاتجاه الفكري حول تعليم الفتاة:

أخشى مما أخشاه أن ابنتنا المعاصرة لا تهتدي إلى سبل الحياة السليمة نتيجة للغزو الفكري المعاصر الذي يزرع في كيان الفتاة وعقلها ما يسمى بتحرير المرأة وأخذ حقوقها وتلك الأفكار تجعلها في صراع مع الرجل فتؤدي بالحياة إلى التضاد بدل التقارب والتواد والتكامل، لأن فكر الصراع جعل الرجل ضداً لها، وليس الأمر كذلك بل إن الرجل هو الذي دعاها إلى أخذ حقوقها المشروعة وبذل لها طاقته سواء كان مسؤولاً أو أبا أو خاً أو زوجاً. وهناك منحى دقيق ومهم هو إن الإسلام لا يقف في وجه حقوقها الشرعية والإنسانية، وإنما انحصرت مطالب الحرية في السفور، ومخالطة الرجال، وكثير مما يتعارض مع الشرع مع أن ميادين الحرية الإسلامية كثيرة لها تأخذ بحقوقها وتنصفها، وتؤمن لها الحياة السعيدة التي تصون الأسس الضرورية لها من الدين والحفاظ على النفس، والمال والعرض، وتكون معتدلة في الضروريات والطيبات، مما يزيدها بهاء وجمالاً ولا يؤدي إلى الإفراط ولا يجعلها دمية تسر ناظر الرجل وحسب، حتى إذا ذوى ذلك

(١) الشوقيات ٤: ٧٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجسم بجماله استبدله بغض ظريف جديد. وعاشت العارضة الأولى مأساة الفراغ والحرمان، والإعراض عنها، تماماً كعارضة الأزياء.

ولا ريب أن الصراع مبني على فكر باطل لم يعمد إلى توجيه رباني، وإلى عقلية واعية تنطلق من التكوينات الخلقية والخُلقية للرجل والمرأة، فحتمية التكوين لها ارتباط بوظيفة كل من الرجل والمرأة.

وحتمية التكوين تحتم على المرأة أن تكون روضة روحية ونفسية وأن تكون هي بانية الحب الشامخ، أن تكون نبع الود، أن تكون هي نبع الإشراق والبشر، ليس لزوجها وأولادها فحسب وإنما لراحة ذاتها وسعادة حياتها، ولو كان يستغنى عن هذا لاستغنت عنه المرأة المتحررة الغربية: لكنها تتفنن في كيفية الهيمنة على لب الرجال وسلب عقولهم والاستحواذ على أموالهم ولكنها عند كثير منهن في سبيل التيه والضياع في سبيل غواية الشياطين لغربة مادية أولاً وشهوانية ذاتية محدودة بزمانها ومكانها، فلماذا لم تُروض الفتاة المسلمة كي تجعل من هذه الينابيع الخيرة في سبيل الخير لزوجها فتسعده وتسعد في حياتها الدنيا والأخرى، فإذا ما أخذت بجماليات القول والملبس والتطبع في حشمة إسلامية فإنها ستكون نجمة الأسرة بل المجتمع من حولها.

إن إنحراف البشرية لا يبرر الاندفاع وراءهم، فهناك القيم الإنسانية، والتوجيه الرباني أولا لكنهم أعرضوا عن التعاليم السماوية، وابتعدوا عن الاعتدال في تلبية الغرائز الإنسانية.

فالانحراف الفكري صحب أكثر المفكرين من الغرب لأنهم يبحثون بعقولهم التي لا تهتدي إلى صواب الغابر القديم، وينظرون إلى القديم بمنظار الواقع المعاصر الذي طرأ على المجتمعات ولنضرب مثلاً بالزواج فهو توجيه رباني صحب آدم وحواء عليهما السلام وتوارثته الأجيال من بعدهم لكننا نجد المؤرخين المعاصرين الذين استمدوا أفكارهم من الغرب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يشيرون إلى الطوطمية ويضربون أمثالاً بمسميات النساء اللائي ينتسب إليهن الأفراد أو الجماعات، وهذا ضرب من الخيال والتأويل الخاطئ فإن الكثير من العرب وغيرهم ينتسب إلى والدته إذا كانت مشهورة، أو هي التي قامت بتربيته لموت الأب مثل أبناء مارية من الغساسنة وابن تيمية وابن الحنفية وغيرهم وقد كان لنا عدد من الأمثال في سائر المجتمعات فكم من ينسب لأمه نظراً لمكانتها بل إن بعضهم ينسب لاخته وهذه النسبة تدل على مكانة المرأة في الجاهلية الأولى والإسلام.

إن الحب الذي تغمر الأم والأب الأسرة فيه ويتجلى في الاستجابة لرغبات البنات والبنين، فهم أكبادنا تمشي على الأرض، وهم غايتنا في حياتنا الدنيا، وهم رعيتنا التي نرعاها ونحمل أمانة إصلاحها، إن هذا البذل المزدوج روحياً وعقلياً، وسلوكياً ومادياً من الآباء والأمهات إنما هو غرس في النفوس ونماء للعقول يأخذ بها إلى مناهج الفضيلة لكننا نخشى أن تنافسنا على ثمرات حياتنا وأولادنا الاتجاهات المتحرفة التي عصفت بالحياة الإنسانية جمعاء باسم حرية المرأة وإنصافها، فلا نجد مع سخاء البذل اليوم مردوداً عاطفياً ولا مادياً متكافئاً، بل نفتقد الحنان من كثير من الأبناء في نكران وجحود مع أن ما يبذل اليوم متواصل حتى يكاد الفتى والفتاة أن يتجاوزوا مرحلة الشباب، فالشباب ينهل من جهد الأب والأم وكثير منهم لايدرك كنه ذلك، ولا يحاول أن يبادل الحب بالحب، والبذل بالبذل. أمّا في العهود الغابرة فإن الأب ينال خيراً من أولاده مبكراً، والحب والولاء يتجسد في الطاعة التي لا يشوبها التبرم والجفاء مع عميق الولاء للأم والحماية لها.

والإسلام والفرد المسلم لا يقف في وجه حرية المرأة الحرية الشرعية التي نبعت من توجيه خالق البشرية الذي هو أدرى بمصلحة عباده، والفرد المسلم لا يقف في وجه إنصاف المرأة من الظلم المستبد بها؛ بل يكون معها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا عليها، وأكثر الداعيات من مثقفات أجيالنا يدعون إلى هذه الحدود، ولكن علينا أن نحذر من التجاوزات الشرعية والسلوكية.

إن الفتاة في بلادنا مضرب المثل في الصلاح ذلك بفضل الله ثم بعزيمة الدولة الإسلامية التي رعت البناء للتكوين الاجتماعي، ونحن لما نتدبر أمرنا نجد أننا في خير والحمدلله فالتعليم المحصن أبوابه مفتوحة، وقد رأينا بنات مجتمعنا وقد حصدن المعرفة، وثمار العلم واضحة للعيان فالتقي والصلاح، وقلة الجريمة والتزام الفتاة بمبدأ الشرع الإسلامي، كل هذه جعلت فتاتنا تزهو بمبادئها وبحصانتها وبعفافها وبدعوتها إلى الله، وببناء أسرتها، وغرس الفضيلة في أولادها وتلامذتها بل هناك دعاة للخير والهدى، وهناك نساء لهن دورهن القيادي في الخير وبناء الجمعيات الخيرية والقيام عليها، يرأفن بالفقراء، ويواسين اليتامى والمساكين. كل ذلك بجدها بلا مقابل بل بما تبذله بسخاء من مالها.

كل ذلك ثمرة التمسك بفضيلة الالتزام بشرعة الله ولبناء المجتمع الإسلامي دور فعال فكل فرد من رجل أو امرأة وشاب أو شابة معرض للخطأ وارتكاب المعاصي فلا معصوم إلا من عصم الله وهذه وسيلة اختيار ربانية لكن كل فتى وفتاة وكل رجل وامرأة يدعوا الله أن يعينه على اجتناب سبل المعصية وهذا ما يعمل له المجتمع الإسلامي بل حتى الفرد لذاته ولأسرته؛ فلا خلوة، ولا طول محادثة، ولا سفر للفتاة منفردة، ولا سفور، وهناك العقاب للفتيان والرقابة من رجال الحسبة.

ولنختم بختمة عفيفي لكتابه عن المرأة فقال:

«لقد خلقت المرأة لتكون قوة من قوى الوحي والإلهام في نفس الرجل. فهي كالروح السارية تحرك الأحياء ولا تُرى، وكالقمر المنير يضيء الشعاب ولا يحس، والكهرباء الدافئة تملأ الوجود ولا تدرك. هي خلق قوام حياته الجود بالنفس والفناء في سعادة الجماعة واحتمال الآلام المضنية والأهوال

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المروعة في راحة الزوج والولد، وهي كعود الثقاب ينشر الضوء في كل شيء ثم يحترق. تلك هي المرأة التي جعل الله السعادة بين شفتيها، وجعل الجنة تحت قدميها، وفرض لها من الطاعة في رقاب الأبناء أضعاف ما فرض للآباء. هي سر عظمة الأمة ومبعث قوتها ومشرق صفوها وسعادتها. فإذا تنكبت تلك المحجة وانحرفت عن هذا السبيل فثارت على البيت والولد وانكشف في المجامع والأندية، وانغمرت في الملاعب والملاهي، وراحت تعلن عن نفسها بشقائق القول وفضول اللسان، فهنالك الويل والوبال، وهنالك الفناء والدمار"!ولا تقل إن مثل ذلك كائن في بلاد المدنية الحديثة. ففي تلك البلاد خير وشر، ومن شأن الجسم القوي أن تقاوم قوته ما قد يُلم به من ضعف وفساد، فهنالك الخير يطوي الشر ويحمله، وهنالك نار الجدّ تنفي زيف اللهو وتحيله. على أن كثيراً من كتاب تلك البلاد ينظرون إلى ما أصاب المرأة من شطط واندفاع فيقولون إنّ هذا انتحار للأمّة سريع الأجل! فما بالك بمن يأخذ بذنب الشر ويترك الخير، فالحياة عنده لهو ولغو وضجة وإعلان.

ألا فليعلم القوم أنّ المرأة قطب الحياة، فإذا استقام استقامت، وإذا تمايل اندكت، وما قوامه إلا الدين، فهو الأساس الثابت والبناء المتين»[1].

وقد زخرت الدواوين الشعرية الشعرية بتنمية القيم الإسلامية في بنات المجتمع، والقريبات أولى بالمعروف فهذا الشاعر الباحث المطيري له أبحاثه المتواصلة في أدب الطفل، وله شعر كثير يدعو إلى القيم الإسلامية، وقد استحوذت بناته على كثير من إبداعه الشعر؛ فخصهن بديوان (أغاريد شذا) ولا زال مخطوطاً. وهو يوظف الإبداع الشعر لغرس القيم الإسلامية النبيلة يقول فيها عن ابنته (عزيزة):

---

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها: ١٥٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

(عـــزيزة جـــمـــيلة ظَـريـفـــــة وهـادية
لـهـــا ذكـــاء بـاهـرٌ تحْـيـا حـيـاة هانيـة
تعـــودتْ منذُ الصِّـغـرْ على الخِـصَال السـامـيـة
وقـدْ رَعَـتْـهـا أمُّـهـا رعـايـة مُـواتيـهْ
فـأنْصـفتْ وقـدْ سَـمتْ بذي الصِّـفـات العـاليـهْ
من أجلهـا قـد أُكـرمَتْ حـقًّـاً وصـارتْ غـاليـة
فـهـيَ التي بعطْفِـهَـا على الفـقـيـر حـانيـهْ
وهـيَ الـتـي بـبـرِّهَا تُحْـسِنُ وهـي راضـيـهْ
لـلـه مـا أرْوَعَـهَـا رائـحـة وغـاديـه[1]

وهو يستنطق الفتاة المسلمة، وذلك أبلغ من التوجيه المباشر مع الخير فيهما.

مـسلمـة والعـزمُ شـعـاري والصـدقُ يقـيني ودثاري
مـسلمـة أتمنطقُ حـزمـاً ويُجلّلُ رأسي إصْـرارِي
مـسلمـة كـالفـجـر نقـاءً وكنجم الأكـوانِ السَّـارِي
أتـألـق كـالـوردِ جـمـالاً بحـجـابِ يَحْـوي أنوارِي
سـأبقى رغم الفـجَّـارِ كـاللؤلؤِ أُخـفي أسـرارِي
بحـجـابي كـالطَّود شُـموخـاً ويقـيـني باللهِ البـارِي[2]

(١) منى بنت محمد الغامدي، شعر الأطفال في الأدب السعودي ٤٤٢ (مخطوط).

(٢) منى محمد الغامدي، شعر الأطفال في الأدب السعودي ٤١٣ مخطوط (رسالة علمية).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

صورة البنات في الشعر العربي

- الولادة.
- الطفولة.
- محادثة البنات.
- زواج البنات.
- مشاركة الآباء لهن.
- الرثاء.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مدخل:

الشعر فيض الأحاسيس، وتدفق المشاعر يحمل وجدان الشاعر ليتواصل مع الكون من حوله محباً له، سواء كان الشاعر مادحاً أو قادحاً، فما التعريض بالشعر إلا طلباً لمسالك الحق والكمال.

وقد جسد شعر الآباء في بناتهم صفاء الحب، ونقاء السريرة، وتعانق الود والتآلف حمل الشعر لنا بهجة الآباء ببناتهم، زمن الولادة، وفاض بالسعادة الغامرة واصفاً المداعبة والملاعبة، وتألق بالأنس في المحادثة والمجالسة ومجاذبة الحوار، وصور الشعر البنات رياضاً يدلف الآباء إليهن حين تكفهر الحياة أمامهم.

وأشرق بالحبور والسرور في بهجة حفل الزواج ومسرح الطرب والفرح، ووصف لنا انكماش الأبوين بانتقال الابنة الحبيبة إلى الحياة الزوجية الجديدة، وخلو البيت منها، واستشعر الشعر أثقال الحياة التي تلوح في ضباب الحياة لبناتهم، وروعنا الشعر بمآسي البنات في أمراضهن وغربتهن، وشارك الشعراء بناتهم المصائب التي تداهمهن بفقد أولادهن. ثم استبكانا كثيراً شعر الرثاء للبنات حتى إننا لم نر شعراً يحمل حزناً أصدق إحساساً من لوعة الشعراء على بناتهم، فإذا أردت أن تشنف إذنيك بأصدق المشاعر، فاطلب رياض الشعر في البنات. وسأنتقل بك أيها القارئ والقارئة مع الشعراء حين يسعدون بولادة بناتهم، وحين يلاعبونهن، ثم تأنس بمحادثتهن وتشاركهم أفراحهم مع بناتهم. وتحزن بحزنهم في مصائبهن.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الولادة:

إن ولادة البنت في مستهل الحياة الزوجية أمر يوحي بالخير والبركة، فخير النساء من تكون بكرها بنتاً. والبنت عند العرب لها مكانتها، فهي تخدم أسرتها، وهي تنشر المرح والمداعبات وتجمع شمل عائلتها، ويتعلق بها قلب الأب، ويكنى بها، فتحتل مكانة كبيرة فهذه هند بنت عتبة أثيرة أبيها حتى أنه يأخذ برأيها وترك لها حرية اختيار زوجها، وهذه المكانة عند أبيها، وهذه الأثرة غرست في الفتاة القيم ونمت الفضيلة، وصانت الشرف مما جعل علية القوم يتوافدون لخطبتها، وقصص العرب يحكي لنا أمثال هذه المكانة، وكون الشعراء القدامى لم يعبروا عن ابتهاجهم لا يمنع الابتهاج الشعبي بها والشعراء أيضاً لم يهتموا بسائر القضايا الاجتماعية وانشغلوا عنها وربما ضاع كثير من الشعر الذي يمثل هذه الظاهرة.

ومن غرائب الحوادث أن والد الشاعر أحمد شوقي كان يعاني من سكرات الموت وزوجته كانت تعاني من ألم الولادة، وهو يطوف بينهما وفي الصباح يموت والده، وتلد زوجته أبنته (أمينة) وهو يأمل قدرة الله وتقديره وتدبيره وللكون يقول في هذه الليلة التي ولدت فيها ابنته (أمينة):-

يَالَيْلَةَ سَمَّيْتُهَا لِيلَتَي ... لأنَّهَا بالنَّاسِ مَا مَرَّت

أذكرُهَا والموتُ في ذِكْرِها ... على سبيلِ البثِّ والعِبْرَةِ

لِيَعْلَمَ الغافِلُ ما أَمَسُّهُ ... ما يومُهُ ما مُنْتَهَى العِيشَةِ

نَبَّهْنِي المقدورُ في جُنْحِها ... وكنتُ بينَ النَّوْمِ واليَقْظَةِ

الموتُ عَجْلانُ إلى والدي ... والْوَضْعُ مُسْتَعْصِرٌ على زوْجَتي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا فتىً يُبْكى على مثْلِهِ ... وهذهِ في أوّلِ النَّشْأةِ

وتلك في مَصْرٍ على حالِها ... وذاكَ رَهْنُ المَوتِ والغُرْبةِ

والقلبُ ما بَيْنَهُما حائرٌ ... مِن بَلْدةٍ أسْرِي إلى بَلْدةِ

حتى بَدا الصُّبحُ فوَلى ابي ... وأقْبَلتْ بعدَ العَنَاءِ ابْنتَي

فقُلْتُ أحْكامُكَ حِرْنا لها ... يا مُخرجَ الحيِّ منَ الميِّتِ![1]

وأحمد شوقي يصور موقف الأب من ابنته في عامها الأول، فيراها ملاكاً روحانياً، وقد استحوذت على لبه فيخفق قلبه فرحاً لضحكاتها، ويخفق أسأ لبكائها، وعينه ترقبها في غدوها ورواحها، ونومها ويقضتها، وفي سكونها وحركتها فهي ماثلة في عينيه بل من سعادته أن تسعد ابنته وهذا شأن كل أب:-

أمِينتي في عامِها الأولِ مِثْلُ المَلَكِ

كم خَفَقَ القلبُ لها عندَ البُكا والضَّحِكِ

وكم رعَتْها العَيْنُ في السَّكونِ والتَّحرُّكِ

فإن مَشَتْ فخاطِري يَسْبِقُها كالمُمْسِكِ

ألْحَظُها كأنهَا مِن بصَرِي في شَرَكِ

فياجَبينَ السَّعدِ لي ويا عُيونَ الفَلَكِ

ويا بَياضَ العَيْشِ في الأيّام ذاتِ الحلَكِ

---

(١) الشوقيات: ٤/٧٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إنَّ اللَّيَـــالـي وهْيَ لا تَـنْفَكُ حَـــرْبَ أهلِكِ
لو أنَصَـــفَـــتِكْ طِفْلَةً لكنْتِ بِنْتَ المَلِكِ[1].

ويصور الشاعر محمد حسن العواد مولد ابنته (نجاة) بأنها «هتفة من هتفات الحياة يتخللها الأمل» فأول هاجس هو يتمثل في أعظم آمنية له أن تكون حياتها ناجية من المنقصات والأمراض، فهل هناك عاطفة أقوى من تلك العاطفة التي تنزع بقدوم البنت؟ ثم هو يتمنى لها أن تؤدي رسالة الطهر والعفاف وأن تحمل راية العمل الصالح والعلم النافع.

ثم يجعلها أنشودة الحياة وطيورها المغردة، وهي تضئ البيت وتبث البهجة في القلوب بابتسامتها التي يدعوها إلى نثرها بل إن إطلالتها ومداعبتها إنما هي نسمات الفجر، وحفيف أشجاره وأغصانه وأزهاره وهذه الصور التي استدعتها البنت من ألوان السعادة للمفرد في هذه الحياة:

ليلة الشك جئت يازهرة الشـ ـك، فكان اليقين أولى هباتك[2]
يا «نجاتي»! مناى لو ضمن الدهـ ـرُ - على بخله - جميل نجاتك
فتؤدى رسالة الطهر وسعـ ـي قوة منك تختفي في سماتك
وتغذي الحياة من شرف الخلـ ـق، فتعلي بها مكان لداتك
أنت أنشودتي الصغيرة في الدنـ ـيا فهذا الغناء من نغماتك
وابتساماتك الجميلة تغلي لذة العيش فانثرى بسماتك

(١) الشوقيات: ٤/ ٧٤.

(٢) العواد الديوان، نحو كيان جديد ٢٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أنت ترنيمة الصباح، إذا ما أقبل الفجر حاملاً همساتك

أنت لي هيثم - تعجل - رفافاً ، وهذا الرفيف في حركاتك

وأنا النسر نال في أفق الشعـ ـر مدى تلمسينه في غداتك

والعواد ذلك الرجل الصارم القوي الذي لا تلين قناته وهو ابن القبيلة العربية من جهينة يحمل إرث القبائل العربية وهو مع ذلك كله يحمل العطف كله، وتهفوا نفسه للحنان المنتظر لهذه المولودة، بل يعلن أن التواد والحب حول طبعاً لهذه الطفلة بل إنها روضته وآلانت جانبه حتى لخصومه.

جئتني يا نجاة والعيش مزهو ، وفي النفس عارم الرغبات

وأنا المستعد أن أحمل العطـ ـف ، وألتذ بالحنان المواتي

بعدما عشت صارم الفكر،جبا راً على القائلين، جم الأذاة

أتحدى أولى اليراع، وألقى روعة الخوف في القلوب الهفاة

غير ما مفلت أديباً من النقد ولا عاطفاً على ذي هناة

وشديد الحساب للكاتب المخـ ـطئ والشاعر الضعيف الأداة

فتحولت طيِّعاً يعرف الرحـ ـمة، دمثاً يهش للبسمات

وطئت بالزواج ساحة أخلا قي ، وأفللت بعده من شباتي

وشعرنا - وكنت قبلك مع أمـ ـك إلفين - بازدياد الحياة

حيث أتممت ثُلثها الثالث الباقي ، فاستمسكت بفضل الثبات

إيه ثلث الحياة لو تلمس القسـ ـمة في الشكل جوهر الوحدات!

* * *

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحدة «يانجاة» كاللحن يهديه ... إلى السمع عازف جد ملهم

ألفتها عناصر أحسن الإبـ ... ـداعُ ترتيبها المتين وأحكم:

والد يدفع الكيان، وأم ... تتلقى، وطفلة تتسلم

والدكتور عدنان النحوي له قصائد في أسرته من الأولاد والأحفاد فتحدث عن زفاف ابنته أروى، وتحدث عن مولد حفيداته لبنى ولينة وليس.

× فقصيدته (لبنى) كبرى حفيداته تمنحنا صورة البنت لدى الأبوة والأمومة وإن علت فهذا الجد يتهلل بشراً وسروراً بمقدم بنت ابنته، ويجعل مقدمها مقدم السعادة كلها[1].

صِرْتُ جَدّاً فَهَلِّلي يا جُدُودُ ... واسعدي أَشْرَقَتْ عليك الجُدُودُ

هِيَ لبنى يَا بُشْرَياتُ أطلبي ... وانْهَضي، أَقْبَلَتْ علينا السُّعود

غَرْسةٌ مِن مَنابِتِ الخَيْرِ والطهـ ... ـرِ وَعِطرٌ مِنَ التُّقَى مَشْهُودُ

غَرْسةٌ شَهْدُها الفَضَائِلِ والبِشـ ... ـرُ وحظٌ مِنْ ربِّها ممدودُ

وعطف الجد كاد آن يماثل عطف الأب فهي لحن دائماً في تغريدها في بكائها وصراخها نشيد:

هِيَ لَحْنٌ مِنَ الجَمَال غَنِيٌّ ... وشَذاً فَوَّحَتْ عَلَيهِ الوُرُودُ

قِيلَ هذا البُكاءُ، قُلتُ أَغَانٍ ... قِيلَ هذا الصُّراخُ قُلْتُ نَشِيدُ

(١) د. عدنان النحوي، ديوان مهرجان القصيد ٢٤٦، الطبعة الأولى مطابع النحوي ١٤١٤هـ.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أي لحنٍ مِن البـــراءة أحلى؟ هُوَ عِنْدي مَـعْنَى وَلَحْنٌ وعِـيـدُ
مَـهْـرَجَـانُ الحَـيَـاةِ فِـيـه وآيٌ تَـتَـبَـدَّى لنا وخَلْقٌ جَـدِيدُ

وهو يصورها تقبل عليه حبواً ثم تتعثر في نهوضها، ثم انطلاقة السير مصحوباً بالتغريد، وهي تارة تعلوه وتلاعبه وتعابثه وكلها متعة وسرور:

مَا أُحَيلاكِ حِيْنَ تَسْعَيْنَ حبْوَاً فِي غَـدٍ حَـوْلَنا وَتنأى المُهُـودُ
ثُمَّ تَسْعَيْنَ للنُّهُوض فَيَحْلوا مِنكِ سَعيٌ وَوَقْـفَـةٌ وقُـعُـودُ
ثمَّ تَهْـوين، ثُمَّ أنهضُ وثَبـاً يتلقَّـاكِ سَـاعِـدي والزَّنُود
حِـيْنَ تجـرينَ في غـدٍ وَثبَـاتٍ تتلقَّـاكِ أضْلُعي والكُبُـودُ
فَـوقَ ظَهْـرِي، عَلَى يَدَيَّ كَطَيْـرٍ نَقَلَتْـهُ أفْـراخُـه والنُّجُـودُ

واهتم شعـراء الحجـاز بذكـر مولد أولادهم ومولد أولاد أصدقائهم وأقربائهم وبعض الأمراء. فقد نظم الغزاوي وعلي حافظ في ميلاد أبناء الملك فيصل خالد وسعود ومحمد، وكأن الأسر تتمنى أن يقال في مولدها شعر، ومن أكثرهم علي حافظ فله أكثر من عشرين قصيدة قصيرة في ميلاد أولاده وأولادهم من بنين وبنات.

وعلي حافظ يصور خبر ولادة حفيدته (راوية) وتهفوا أمانيه إلى رؤيتها ماشية في تدليل يذكي القلوب، ويريح النفوس، والأسرة ترى فتاتها جميلة حتى قبل أن تظهر معالم الجمال، فالبنت تستهل حياته في جو مفعم بالحب تتخطفها القلوب قبل الأيدي.

إنَي ظَمِـئْتُ فَـأقْـبِلي يَا راوِيَةَ أَسْقِ العَطَاشَى في كُؤُوسٍ صَافِيَة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولو غاب عنه ساعة أو دقيقة فليس لإشـــواق المحب له حـــد

أيا زهرة في القلب طاب غراسها أو وفيه شذاها يعبق المسك والند

ويا والديها أنتما ظل دوحة تسامت بأرض الحب قد زانهاالورد

رعاكم جميعا فالق الحب والنوى وواقاكم من أين وافيتم السعد[1]

من هنا ندرك لدى الاستبشار بولادة البنت، وجل المجتمع لا يفرق بين إطلالة البنت أو الابن، لكن هناك حالات تتمنى الأسرة فيها أحدهما فمثلاً امرأة أو أب يرزقان بنين فقط فإنهما يتمنيان أن تأتي لهما ابنة وكذلك إذا توالت البنات فإن الأبوين يتمنيان أن يرزقان بابن بل حتى الأخوات تهفو نفوسهن لأن يولدلهن أخ ذكر.

والشاعر المهجري زكي قنصل له ديوان في ابنته « سعاد» التي أطلت عليه في (شهر إيار) فكأنها الربيع الذي حل دار الشاعر، وهي تحمل النضارة والإشراق، وتزرع البهجة لبيت كئيب لكنها لم تجاوز عامها حتى داهمها الموت، فأخذ الشاعر ينفث ألمه فكأن نور عينه قد انطفأ، عندما انطفأت كالزهرة الذابلة. وله قصائد في سريرها، وألعابها لكننا هنا نقطف ما قاله الشاعر في ولادتها:

فقد ضحك الزمان بعد عبوس، فاستبشر بمقدمها، وإطلالتها عليه حياة جديدة يستمطرها الشاعر:

ضَحِكَ الصَّباحُ فَقلتُ لولاَها لَمَا ضَحِكَ الصَّباحْ

أَهلاً عَرُوس الفَجْرِ، أهلاً بِالصَّباحةِ والصَّلاحْ

هَاضَ الأسى جُنحِي، فلمَّا جِئتِ طِرتُ بلا جناحْ

(١) إبراهيم السبيل، نقوش على صفحة المجتمع ١١٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتكاثرتْ فيَّ الجـــراحُ فكنتِ برءاً لِلجِـــراحْ

* * *

أسُعادُ هلْ أحلى من اسمك بين أسماء البشرْ ؟

لكأنَّه أهزوجـــةٌ تشـــوى على شَـــفَـــةِ الوتَرْ

لكأنَّه نجـوى النَّسـيمِ يَهُـزُّ أعطَافَ الشَّـجـرْ

لكأنَّه قُـبَلُ النَّدى تنســـابُ مَـــا بين الزَّهَرْ

والشـاعـر زكي قنصل يصـور دور الطفلة المولودة في البـيت، فـبكاؤها والسـهـر عليـها من لذائذ الحـياة، وسـعـادتهـا، إن الأم حين تداعب ابنتهـا تنتشـي بأمـاني الحـيـاة، والأب يدلف إلى روضـة الفـتاة الحـانيـة من وهج الحياة الصاخب:

مـــاذا بُكاؤكِ يا سُـعـــادُ وعينُ أُمِّكِ ســاهره

غَـــيـــرى تُنهنهُ عن ســريـرِكِ كل عينٍ شـــازِره

سلِمتْ يداك لقـد أقلتِ لِهـا الأمـاني العـاثره

وبعـثتِ مِن آمـــالِهـــا مـــا ليسَ تُدركُ آخـــره

ويرى الأب الشاعر أن البنت ملاك روحاني، يفيء إلى فيئه ويشنف أذنيه برنين صوتها، وبقامها واعوجاج نطاقها.

هذا مـلاكُكِ فـارتعي في ظِلِّهِ الضَّـافي الظَّليلْ

واسـتـمَـتِـعي مِنه بأزكى من شـذا الورد البليلْ

مـــا أهونَ الأخطارَ يدفعْ شـــرَّها هذا الدليلْ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ما أقربَ القَصْد البعيد وأيسرَ العِبء الجليلْ

* * * * * * * * *

يا قُـرَّةَ العَـينين غَنِّي واضْـحَكي وتهللي

وتدللي مـا شـئت يا أولى فـراخ البلبل

إنِّي اتخـذتُك سلوتي وجـعلتُ مَـهـرك منزلي

«مـا الحبُّ لو تدرين إلاَّ للحـبـيبِ الأوّل

**

هلاَّ شدوتِ معَ البلابلِ في الصَّباحِ وفي المَسَا

وتركتِ للغـربانِ ألحـانَ التـشـاؤمِ والأسى

فَـرَشَتْ يَدُ الرَّحـمنِ دربَك يا رجـائي نَرجـسا

وكـسـاكِ من حُلَلِ السَّـعَـادةِ كلَّ يومٍ بُرْنُسَـا

مداعبة البنات زمن الطفولة:

كان بعض العرب يأنفون أن يداعب الرجل وليدته، أو يسمح لها أن تمرح بين يديه أمام الرجال فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نقض تلك السنة السيئة، فلم يكن يضن بوقته الأعز أن يداعب فيه الولائد من بناته أو بنات صحابته.

فقد حدّث البخاري عن أبي قتادة قال: «خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها».

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحدثت أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي وعليَّ قميص أصفر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « سنة سنة» - وهي بالحبشية حسنة - قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة فانتهرني أبي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعها، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبلى وأخلقي ثم أبلي وأخلقي» فُعمرت بعد ذلك ما شاء الله أن تُعمر.

والحقيقة أن قلوب البشر تتعاطف مع أولادها بنين وبنات فذلك غريزة خلقها الله في كل كائن حي متوالد، ولا ريب تحققها في العرب وإن وجد من يخالف ذلك فهم قلة، ولا ريب أيضاً أن الإسلام قوّي الروابط الأسرية، وزاد من تأجج عواطف الحنان والحب، وروى ذلك بالتواد والتعاطف، ووجه العقل البشري وجهة عملية للتعامل الأسري بل جعل الثواب لصلة الرحم والعقاب لمن يخالف ذلك، فالرسول صلى الله عليه وسلم أبان في أحاديثه أن التربية عمل صالح وخصَّ البنات بعدد من الأحاديث؛ ومن ذلك حديث عائشة أم المؤمنين قالت: جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة. فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها. ثم قامت فخرجت. فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته. فقال :»من ابتلي من هذه البنات بشيء كنَّ له ستراً من النار».

أما حبه عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة، وشفقته بها، وحنانه عليها، فما لا يحيط به وصف ولا يناله بيان. وهي التي يقول فيها: فاطمة بضعة مني يسوءني ما يسوئها، ويسرني ما يسرها، والرسول قدوة كل مسلم

أبصر المسلمون كل ذلك، ورأوا أن الله لم يختص فاطمة بنت محمد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بذرية رسوله إلا ليَشيد بالمرأة، وينهض بأمرها، ويرفع من شأنها، ويأخذ العرب بحبها، والابتهاج بها. ففدوا من بعده يحبون بناتهم ويكرمونهن، ويرون الخير كله معقوداً بنواصيهن. وقد استخلص وهب بن منبه من تقديمه سبحانه الإناث في قوله:)يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) أن من يمن المرأة أن تلد الأنثى قبل الذكر[1].

(١) انظر: عبدالله عفيفي، المرأة في جاهليتها وإسلامها: ٢: ١٧، ١٩ بتصرف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ملاعبة البنات:

والأدب العربي صور طفولة البنت، وتعلق الأب بها، لكنه لم يستطع أن يصور الواقع الذي يجول في مشاعر الآباء والأمهات، وكيف تتنامى علاقة الحب الأبوي، ولا أحد يستطيع أن يتحجر أمام مداعبة البنات وحنانهن من بداية المناغاة وتعلق النظرات إلى رسم البسمات وإمطار القبلات، والحبور والاستقبال المشرق، واللعب والطليات، ثم المداعبات والطاعات إنها رحلة السعادة للآباء أيتها البنات أنكن الأثيرات فلا تغررن الحملات الإعلامية التي تبتغي تفكيك وتفتيت الروابط الأسرية أيتها الفتاة ما رأيته من أبيك فتصوري أن ابنتك تعمله لك ولأبيها فازرعي الحب والتواد في بيت الزوجية حتى يسود الوداد والحنان والتحاب فهذا أبو دلامة يغضب من ابنته لما يحمله من تبرم من أمها وهي من المداعبات المبتذلة:

بللتِ عليّ لا حُييتُ ثوبي ... فبالَ عليك شيطانٌ رجيمُ

فما وَلدَتْكِ مريمُ أمُّ عيسى ... ولا ربّاك لقمانُ الحكيمُ

ولكن قد تضمك أمّ سوء ... إلى لباتها وأبٌ لئيمُ[1]

لكن انظر لقول جدع[2] في إعجابه بعبث ابنته بثيابه النظيفة يقول:

«جاءت بها أمها وكنت لابساً ثيابي الجديدة فداعبتها ولاعبتها فلامست

---

(١) أبو دلامة، الديوان، تقيق د. رشدي علي حسن، بيروت مؤسسة الرسالة ط١ ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص٩٥.

(٢) هو إبراهيم محمد جدع، ولد في جدة عام ١٣٣٠هـ، شاعر سعودي معاصر له ديوان ضخم، متوفى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يدها التي كانت في فمها ثيابي فأبعدتها أمها عني كيلا تتسخ ثيابي.. وكان مشهداً أثار في نفسي الرغبة في التصوير.. وتيقظت قريحتي فجاءت هذه القصيدة إلى ابنتي سُمية:

دَعِيْهَا.. دَعِيْهَا
لِتَعْبثَ فِيْهَا
ثِيَابِي الَجدِيْدَة
فَلَسْتُ أُبَالي
دَعِيْنِي لأَنْظُرَ
هَذِي الْبَرِيْئَةَ
حَبِيْبَتِي
سَتَلْقَينَ يَوْماً هَذِي الحَيَاةْ
وفيها البناة
وفيها الطغاة..
ستلقين يوماً
ظروف الحياة.

وَفِيْهَا الْهَنَاءْ
وَفِيْهَا الشَّقَاءْ..
وَتَرْجِينَ دَوْماً
سَبِيْلَ النَّجَاة..
دَعِيْهَا.. دَعِيْهَا
أُقَبِّل فَمًّا
مَلاَكي الصَّغِيرة.
وسلوة عمري..
وشمسي المنيرة
دعيها.. دعيها
لأنظر فيها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جَمَالَ الخَلِيْقَة..

وأحمد شوقي رزق بابنه علي وابنته أمينه وله شعر فيهما لكنه أكثر في ابنته من ابنه بل أطول وأعمق وأكثر تدفقاً شعورياً وما ذاك إلا لمكانة البنت عند الرجل، وهو يدعو لها بالعقل والعافية بل يتمنى لها زوجاً صالحاً وأن يرزقها الله بالأولاد الصالحين فالأب يحمل أثقال ابنته صغيره وكبيره من المهد إلى اللحد:

أمِـينةُ يابِنْيَـتي الغـالِيَـةْ ... أُهَنِّيكِ بالسِّنَةِ الثَّـانِيَـةْ

وأسألُ أنْ تَسلَمِي لِي السنينَ ... وأن تُرزَقِي العَقْلَ والعَافِيَة

وأن تُقْسَمي لأبَرِّ الرِّجَالِ ... وأنْ تَلِدِي الأنْفُسَ العَالِيَةْ

ثم هو يذكر بذله لها وهي تعبث وتحطم ولا تبالي، فجيوب أبيها خالية ويدها لا تخلو من النقود وهو يعاني وهي لا تشعر بالمعاناة وهو يضحك حين تضحك أمينة.

أتَدْرِين مـا مـرَّ من حـادثٍ ... ومـا كـان في السِّنَةِ الماضِيَةْ!

وكم بِتِّ في حَلَلٍ من حَـرِيرٍ ... وكم قَـدْ كَسَـرْتِ مِنَ الآنِيَـة !

وكم سَهِرَتْ في رِضاكِ الجُفُونُ ... وأنتِ عَلَى غَـضَبٍ غـافِيَـةْ !

وكم قد خَلَتْ مِنْ أَبيكِ الجُيُوبُ ... وَلَيْسَتْ جُيُوبُكِ بالخالِيَة !

وكم قَـدْ شكا المُرَّ مِن عَيْشِهِ ... وأنْتِ وحلْواكِ في ناحِيَـةْ !

وكم قَـدْ مَرِضْتِ فأسْقَمتِـه ... وقُـمْتِ فكنْتِ له شـافِيَـةْ !

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وَيضْحَكُ إنْ جِئْتِه تَضْحَكِينَ ويَبْكي إذا جِئْتِه باكِيَةْ !

ومِنْ عَجَبٍ مَرَّتِ الحادِثاتُ وأنتِ لأحْدَثِها ناسِيَةْ !

فَلوْ حَسَدَتْ مُهْجَةٌ ولَدَها حَسَدْتُكِ مِن طِفلة لاهِيَةْ![1]

والشاعر الرقيق أحمد رامي ينقل رقصات شعورية مع حفيدته (رانية) فهي قرة عينه، تنسيه هموم دنياه، يشتاق إلى ممازحتها ومعابثتها، ويستطيب قبلتها، ويستطيل نظراتها، وهي مكتملة الجمال في نظرة يعشق ألفاظها ونداءها، ويدعو لها بالحياة الهانئة:

أنا أحبّ (رانيـــــة) قـرَّة عـيني الغـاليـة

إذا رأيت وجـــهـــها نسـيتُ كلّ مـا بيـه

اشـتـاق أن أضـمّـها وهي عليّ حـانيَـة

وأســتطيب قـبلةً من الشـفـاه القـانيـة

وأســتطيل نـظرةً من العـيون الساجيـة

للّهِ مـا أجـمَلهـا حين تكون راضـيـة

ومـا أرقَّ خطـوها رائحـة وغـاديـة

تقـول (جِـدُّو) وأنا أقـول يا حـيـاتيـة

أفـديك يا صـغـيـرتي بالروح وهي غـاليـة[2]

(١) الشوقيات ٤ : ٧٦.

(٢) أحمد رامس: الديوان ٢٣٨، بيروت ، دار العودة ١٩٨٧م.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحسن القرشي يداعب طفلته ومداعباته طفلة في مستهل الكلام ويصور مشاجرتها مع أخيها وينطلق إلى وصف تلك الطفلة في أسلوب سردي قصصي، يرسم فيه الغم والهم الذي أصاب ابنته جراء اعتداء أخيها على لعبتها ، ويصور لنا تصويراً مسرحيا أحوالها وهو قد تفاعل مع ابنته بروح مرحه خفيفة ، تتدفق فيها شعور الأبوة الحانية التي تفيض بالود والرقة:

أتتني على الصبح بِنتي الصغيرة ... وفي صوتها رعشة مستجيرةْ

وفي فمها لثغةُ حلوةُ ... تُموسقُ أحلامَ قلبي الأسيرةْ

أتت تشتكي من أخيها الصغير ... فقد داس إحدى دُماها الكثيرةْ

أتتني .. فيا زهرةَ الأقحوانِ ... ترفّ بآمال روحي الحسيرة

لها اسم الحبيبة أمي الرؤوم ... وفي جرسها نغماتٌ أثيرةْ

وفي خطوها - أي خطو صغير- ... دلال كأن فتاتي أميرةْ

فقلت لها يا ابتسام الربيع ... ويا ضوء هذه لحياة الضريرة

سآتيكِ يومي بخيرِ الدُّمى ... فإن الفتى قد أتاها جريرة

فكيف يعابثها بالهوانِ ... وأنت لها مثل أم خطيرةْ

وكيف يدوس التي في حماك ... سيعلم كيف أربى شرورهْ

وإن شئت أن تصفحي فهو أولى ... وتعطيه لعبة طفل حقيرة

فقالت إذا ما رأيت الدُّمى ... صفحت فإني بعفو جديرة

ولكنني لست أعطي دُمَاي ... وإن كن مثل التلالِ الكبيرةْ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تعيشين لي يا ابنتي في سلام فإنك كنز حياتي النضيرة[1]

الابنة الصغيرة هي واحة يأنس بها الأب، وتسرى همومه ، وهذا الشاعر حمزه شحاته المثقل بهمومه وأحزانه، المتبرم من حياته الذي يحمل هاجس الأديب الذي تقصف به رياح الحياة، ويهتز لمؤثرات الحياة، مما دفع به تلك الحالة غير المعتدلة إلى الغربة وتزداد حياته تعقيداً وتعظم أشجانه وآلامه، حتى إنه ليدعو ابنته الصغير إلى مداعبته ولا تتأثر برؤيته لبؤسه وشقاه فإنه مع كل ما يحمله سيكون رحيب الصدر لها:

حَدِّقي فيَّ عابساً أو طروباً لا تُراعي لِظاهري أو تُسَرِّي
لك مني صَدرٌ رحيبٌ إنْ ضا قَ بما في الحياةِ ذَرْعاً فَقَرِّي
والثِمي وَجْنَتَي لثماً عَنيفاً وَكِلي لليدَينِ تَجْميشَ صَدري
والصقي وجهَكِ الصَّغيرَ بِكتْفي واجعَلي من يَدَيكِ طوقاً لِخَصري
واهجُمي تارةً بجسمكِ ألقِيـ ـه بعنفٍ يهزني فوق حِجري
وإذا راقَكِ الوصـــولُ إلى رأ سي لكي تَعْبَثي قَليلاً بِشَعْري
فاقفِزي قفزةَ المجازِف في حِر صٍ، تكوني في لحظةٍ فوق ظهري
وافعَلي بي ما شئتِ، وافترضيني لُعبـــةَ) بادَلَتْكِ فَـــرّاً بِكَرّ
فقريباً ستصبحينَ فتاةً لا ترى الشَّمسُ حُسنَها، ذاتَ خِدْرِ

وهو يتمنى محادثتها في غربته وابتعاده عنها بل إنه يتمنى أن تذكره في ليلة عرسها، وهو في غربته نائياً عن أسرته، بل يتوجس أن لا دور له في

(١) الديوان ٢: ٣٢٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثمرة حياته وأن لا تفوذ له في زواج ابنته، وما أتعس الحياة بمنأى عن أفراح الأسرة لا سيما في مناسبات الزواج. وهو يتشكى من قسوة الفراق لكنه يتمنى بقاء ذكراه حتى بعد موته بل زيارتها وأن تذرف الدموع على قبره:

حَدِّثيني ألاَ يروعُكِ بُعدي ... بَعدَ طولِ ائتلافِنا؟ بالذُعرِ

وأسأليني ماذا تكونُ حياتي ... إنْ خَلَت منكِ؟ يانَضارةَ عُمْري

ليتَ شعري لِمَنْ تكونينَ بَعدي؟ يا ... حَياتيَ وقبلتي، لَيتَ شِعري

أقسِمي لي بِحُبِّ (أُمِّكِ) أنْ لا ... تَتَنَاسَيْنَ يوم عُرسكِ ذِكري

أُذكري ذلكَ الشَّقيَّ، اذكريهِ ... فلقد كان يَرتجيكِ لأمْرِ

سوفَ أحيا، نعم ولكنْ حياةً ... تَتَهَاوى بها عواملُ قَهري

وسأبقى معذَّباً مفعَمَ القلـ ... ـب شجُوناً وأستعينُ بصبري[1]

وهو يتحدث عن أحوال ومشاغبة البنات الأخوات، وكثرة صراخهن لاسيما في الصباح الباكر حين الاستعداد للذهاب إلى المدرسة. فالنظام بعيد التحقيق، والمشادة الكلامية دائمة دائبة، يشتد أوارها صباحاً:

وكما تركتِ البيتَ ما زالا ... قَلَقاً وأعباءً وأطفالاً

و«معاركاً» بين حلم الصغار غَدَا حُلْـ ... ـم النظام بهن أطلالاً

أخَذَتْ كتابي ضَيَّعَتْ قلمي ... شدَّتْ يدي قَفَزَتْ على ظهري

ذاتُ الحياة .. وربَما اختلفت ... عما كرهتِ ونحن لا ندري

(١) حمزة شحاته، الديوان ٣٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فـإذا الصّبـاحُ أطلَّ خـضناها حـــربـاً يكون وَقـــودَها آخـــتي

هُدى تقـول: حـذاؤها ضـاعـا زلفى تســائل: أين مَـــرْيلَتي؟

وسهام تبحث عن حَقيبَتِها وتصـيح ليلى: لم أجـدْ قلمي

فـتجيبها نجلا بدمعتها وأنا صـحـوت فلم أجـد كـتـبي

فـإذا انصـرَفْنَ تقوم معـركـة ويَجِـدُ أهل البـيت في الطَّلَب[1]

ويصف الأمير عبدالله الفيصل ابنته سلطانه وصفاً خارجياً يكشف عن شعوره أكثر من تصويره للفتاة، فهي أنيسته في وحشته، وهي أعادت له بسمة الحياة بعد ذبولها.

يَا زهْرَةً لِي نَضِـيـــرَة ونجـــمـــةً لي مُنيـــرةْ

أَضَـــأْتِ بالنورِ عُـمْـرِي أَيَا ابْنَةً لي صـــغـــيـــرةْ

أعـدْتِ لي صَـفْـوَ أَمْـسِي وعـــاد لي فـــيك أُنْسِي

وأخْـضَلَّ دَوْحُ حـيـاتِي من بَعْـدِ صُـفْـرَة يَأْسِي

يا نغـمـةً في وجـودي أَوْحَت إلىَّ نشـيـدي

وبعـد مـا طال صـمـتي أَلْهَـمْـتِني من جـديدِ

أبصـرْتُ فـيكِ الْوَداعَـةْ مطبـوعـةً عليَّ لا صنَاعَـةْ

فـي نَـاظِـرَيْـكِ بـريـقُ يُضْـفِي عَلَيَّ شُـعَـاعَـهْ

والبنت حانية على أبيها تبعث فيه روح الحياة فهي تندفع إليه كما تندفع

(١) حمزة شحاته، الديوان ٣٣٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلى جدتها وتداعبها وتلهو بها، وتبث روح المرح في الكبير والحزين:

إنْ داعَبَتْنِي يَداكِ ... برقةِ كَالْمَلاَكِ
أحْسَسْتُ عَوْدَ شَبَابي ... مُجَسَّداً في صِبَاكِ
أراكِ في كِبْرِيَائِي ... رَجْعاً لصوتِ إبَائي
وفي يديك وَهْجُ حنانٍ ... يضيءُ وَمْضَ هَنَائِي
لَوْ مَرَّ كَفُّكِ يَسْرِي ... على جَبِيني بيُسْرِ
يَنْدَى مُحَيَّايَ صَفْواً ... فيرتوي منه عُمْرِي
على مِهَادٍ وثيرٍ ... نَامِي بطرْفٍ قَرِيرِ
ترْعَاكِ يا بعض نفسي ... عَيْنُ الإلهِ القديرِ

والشاعر محمد حسن العمري له مداعبة مع ابنته)منال) تتسم بالواقعية، وتكشف عن عاطفة الأبوة تجاه البنت وعن الراحة النفسية التي تتألق بين الأب وابنته:

في جِوَارِ الحَبِيْبِ يَرْتَاحُ بَالي ... فَتَعَالِي يانُوْرَ عَيْنِي تَعَالَي
امْنَحِيْنِي سُوَيْعَةً مِنْ نَهَارٍ ... فَهُمُوْمي ثَقِيلةٌ كَالْجِبَالِ
عَلَّنِي اسْتَرِيحُ جِسْماً وَرَوْحاً ... فِي حِمَى دَوْحَةِ الْمُنَى والظِلالِ
قَدْ بَلَوتُ الحَيَاةَ جِدّ وَهَزْلاً ... وَتَجَرَّعْتُ كُلَّ مُرٍّ وَحَالِي
فَإذَا كُلُّ مَتْعَةٍ لا تُسَاوي ... مُتْعَتِي بِبَرَاءةِ الأطْفَالِ
يَاتُرَى مَنْ يَكُوْنُ أَغْلَى حَبِيْبٍ ... إنَّهَا طِفْلَتِي أَعَزُّ عِيَالي

والرجل يعاني من هموم الحياة، فالحياة مكابدة، يعيش الأب في وهجها القاسي هموما فكرية، وصراعاً، وقهر رجال، وسعيا وراء لقمة العيش،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتعب أعمال فهو يعود إلى بيته مثقلاً خائر القوى، متبرم النفس، فلما تقابله ابنته، تكون هي المواسي والطبيب المداوي، فتداعبه وتعابثه، فتجلو همومه وأحزانه، فالأب يرى ابنته روضة الأنس، والماء العذب الزلال، والنسيم العليل:

يَا دَوائِي إذَا شَـرِقْتُ بِدَائِي ... يا سروري في صحتي واعتلالي

أَنْتِ أُنْسِي وَرَاحَتِي وَهَنَائي ... يَا مَلاَكاً بِدُونِهَا البَيْتُ خَالي

أَنْتِ فِي نَظَرِ المُحِبِّ المُعَنَّى ... بَسَمَاتٌ عَلَى شِفَاهِ اللَّيَالي

طِفْلَتِي إنْ ظَمِئتُ عُدْتُ إليها ... بِاشْتِيَاقٍ لِشَرْبَةٍ مِنْ زُلاَل

وَإذَا غِبتُ بَعْضَ يَوْمٍ كَأنِّي ... غِبتُ شَهْراً عَنِ الحَبِيْبِ المُوالِي

حَرَكَاتٌ بَرِيئَةٌ تَتَوالَى ... عَنْ يَمِيْنِي وَتَارَةً عَنْ شِمَالي

كُلَّمَا غَضِبَتْ عَلَيَّ مَنَالي ... حَطَّمتْ كُلَّ لُعْبَةٍ بِانْفِعَالِ

كُتُبِي وَدَفَاتِرِي مَزَّقَتْهَا ... بَعْثَرَتْ كُلَّ مَا تَرَاهُ حِيَالي

وَإذا قُلْتُ يَا مُنَى الْقَلْبِ كُفِّي ... عَن مُضايَقَتِي أوَانَ انْشِغَالِي[1]

أمْعَنَتْ فِي العِنَادِ قَولاً وفِعلاً ... وَأَطَاحت «بفُسْتَرتي وعِقَالي

فالشاعر يصف احتمال الأب لمضايقة ابنته ويفديها بكل شيء، بل إنه لا يقدم على إغضابها، وجرح مشاعرها، ويطلق لها العنان حتى وإن لم يعجب بتصرفها لاسيما في طفولتها المبكرة حين لا تعي عواقب أعمالها، ولكنها إذا تجاوزت تلك المرحلة تكفيها اللمحة والإشارة أمّا قبل ذلك فالعناد والتحدي:

(١) محمد حسن العمري ، ينابيع الربيع .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإذَا نِمتُ بعد جُهدٍ جَهيد أيقظتني بِصَوتها المتَعالي
فَأضيقُ بِهَا وَبِالبَيْتِ ذَرْعاً بَينَما تَستمر في الإخْتِيَالي
ذَاكَ دأبي وَدأبهَا فَصِراعٌ عَاصِفٌ وَتَراشُقٌ بالنِّبَالِ

ومطالب الفتاة في طفولتها كثيرة وعالية الأسعار ورغباتها جامحة، والأب يرأف بابنته ولا يمانع من تلبية رغباتها حتى لا يخدش ولا يكسر ولا يؤثر في حالتها أمام صويحباتها أو زميلاتها:

أَو سَلامٌ مُتوجٌ بِا بتِسَامٍ واعتذارٌ بِرقَّةٍ وَدَلالِ
يَالَهَا مِنْ صَغِيرةٍ تَتَمَادى بمُطالَبَتي بِجَلبِ المُحالِ
كُلُ شيء تُرِيدُه مِنْ أَبيها بينما سِعرُ كُلِّ شيءٍ خَيَالي
طَلَبَاتٌ في إثرها طَلَبَاتٌ بَعْضُها فَوْقَ طَاقَتي وَاحْتَمالي
لَيْتَها تَنْتَهي إذَا قُلتُ مهلاً يَا منَالي جَيْبي مِنَ المَالِ خَالي
اشرَحُ الحَالَ مَرَّةً بعد أخرى لِمنَالي لكنها لا تُبَالِي
حَسِبَتْ أنَّني عَلَى كُلِّ شَيء قَادِرٌ والعليمُ أدْرَى بِحَالي
طَلَبُ المُستحيلِ سهلٌ عَلَيها وَعسيرٌ عَلَى كَثيرِ العِيالِ
سَأُلبِّي من كُل قَلبي وَحَسبي أَنْ تَرَاني في كُلِّ شَئٍ مِثَالي
اطلبي مهجتي فليس لدى مانع من تقديمها لمنالي[1]

فهو يقدم لها المال والقلب فلا يرد لها طلباً وهي إن كبرت كذلك فأي مكانة تساوي هذه المكانة وهذه القصيدة تمثل حياة الإنسان قديما وحديثا

(١) محمد حسن العمري، ينابيع الربيع ٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

مهما اختلف زمانه ومكانه بل حتى دينه ووطنه، فالحالة هذه إنسانية بشرية نابعة من الغريزة الإنسانية.

والحب المتدفق من الابنة الصغرى هو قمة الحب في هذه الدنيا، فالأب يرى فيه الصفاء والنقاء، ويستشعر تدفقه من القلب، وحركات الفتاة ومزاحها وطلباتها، وابتسامتها إنما هي ديمة تسكب من قلب محب، فهذا الأب بعد معاناة العمل يفكر أول ما يفكر بهدية ترضى ابنته كي يعود بها على عجل لحبيبته التي لا يداني محلها في القلب أحد من البشر: يقول محمد العمري مخاطبا ابنته بعد أن أصبحت قادرة على المحادثة:

تَقولُ إذا عُدت إليها من العمل ... كلاماً من الأعماق أحلى من العسلْ

تَقول أما أَحضرت يا أبتي ولو ... قَليلاً من الحلوى فقُلتُ لها أجلْ

بَحثت عن الحلوى إلى أن وجدتها ولو لم أَجِدها ما رجعتُ على عَجَلْ

إذا طَلبت ليلى فُؤادي وَهبتها ... وهل لِسِواها في حَنَاياه من محلْ

هي سَلوةُ القلب الذي بينَ أضلعي ... هيَ راحتي من كُلِّ همٍّ إذا نزلْ

تُبادلُني حُبًا بحب حقيقةً ... فلا القولُ مكذوبٌ ولا الحبُّ مفتعلْ

ولكنَّه الحبُ البريء الذي خَلاَ ... من الزيف حتى شفَّ بالرُّوح وأستقلْ

لها كلماتٌ لا أملُّ سَماعها ... ومن كان مثلي في الأبوة لا يَملْ

ومَا زَالَ هذا الأمرُ دأبي ودَأبها ... كأنَّا على أموالِ قارُون نَقْتَتِلْ

ظهرت في الغرب ظاهرة التبرم من الأطفال حتى من الآباء والأمهات حتى اضطرت الشرطة إلى تخصيص هاتفاً للأطفال للاستنجاد بها من آبائهم، وما ذلك إلا للفكر الخاطئ الذي يتساءل ثم ماذا بعد تعب الآباء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والأمهات؟ ثم هم يؤثرون شهواتهم ورغباتهم على أي شيء حتى على أولادهم . وما ذاك إلا لتفكك الأسرة، وغلبة المادة والشكوك التي تعترضهم حول جدوى المشقة والمسؤولية من تربية الأطفال، بينما الإسلام والمسلمون يحافظون على الروابط الزوجية والروحية، وينسكب في نفوسهم حب البنوة، بل تكون المحبة عارمة أحيانا ومن هنا، وهذا هو الأفضل والأقرب للفطرة تكون المداعبة الطفولية تنمي الترابط مما يولد حب الأطفال لآبائهم وضحكاتهم وتعلقهم، وتلك إنما هي أفضل هدية بل هي الثمن المباشرة لمعاناة الآباء:

أَلستَ مَعي أن البراءَة وحدها ... هي الحبُّ ممزوجاً ببارقةِ الأملْ

وأنَّ ابتسام الطفل أغلى هديَّة ... يُقدِّمُها للوالدين مع القُبلْ

إذا حلَّق الأطفالُ حولي كأنَّهم ... ملائكةٌ لا تعرفُ الحقدَ والحيلْ

شعرتُ بأنواع المسرَّة والهنا ... وودَّعت أحْزاني وما جَدَّ من عللْ

سلامٌ على الأطفال حيث وجدتهم ... فهم زينة الدنيا وهم بسمةُ الأملْ

وهم كالأزاهيرْ التي تَبعثُ الشَّذا ... فَتَحيا بها الأرواحُ من آفةِ الكسلْ

وهو يدعو إلى مجالسة الأطفال، ومنادمتهم، وطول صحبتهم ليكون التوجيه لهم والرقابة عليهم.

ولَوَ أننا نُعطي الطفولَة حقَّها ... لَكُنَّابِها في سائرالعامِ نحتفلْ

إذَا لم نجد وقتاً لنرعى شئونهم ... فقد تَركَ الآباءُ أبناءهُم هملْ

فَخصِّصْ لهم في آخر اليومِ ساعةً ... وفي آخر الأسبُوعِ يوماً على الأقلْ[1]

(١) شروق الأشواق ص ٣٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه الأبيات تشير إلى وجوب عناية الأب بأولاده محتسباً الأجر من الله سبحانه وتعالى لأن في ذلك عبادة لله، وخدمة للإسلام فالتربية ليست للمحبة وحسب، وإنما لصلاح الإنسان والإنسانية وعمارة الأرض.

وعبدالله باشراحيل يستحضر ابنته في كل مكان جميل وكل زمان عليل فيراها في لين الخمائل، ويراها كوكبا بين أقرانها، ويرى البراءة فيها مثل الطبيعة:

يا زهرة بين الخمائل ... يا كوكبا بين القوافل

تبدو إذا لاح الصباح ... وفي مسارات الأصائل

فيها براءاتُ المنى ... فيها ترانيم البلابل

فيها ابتسام النور يسري ... حينما تشدو العنادل

فيها الرياحين المضيئة ... في الحقول وفي السواحل

وأنا بشوق الحب يا نجواي ... أجتاز.. المراحل

كم كنت أرتقب اللقاء ... لكي يطل لكي يواصل

حتى احتضنتك والمنى ... بالورد ترقص في المحافل

أوقدت للفرح الشموع ... وأشرقت منك المنازل

يا طفلة الأمل الصبوح ... وبهجتي بين الأمائل

يا فتنة السحر الضحوك ... إذا تعانق بالسنابل[1]

(١) عبدالله محمد باشراحيل، النبع الظامي ٢٦٢، مطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ط١ ١٤٠٦- ١٩٨٦م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشاعر العسكري العميد الدكتور / فهد محمد النفجان، يستصحب ابنته في مشاعره، فهي قطعة منه حاضرة في مخيلته، يهنأ بها، وينعم بمخاطبتها وملاطفتها، وهي تستحوذ على عقله وتفكيره، يمحضها حبه، ويمحضها عصارة فكره، ويتضرع إلى الباري بأن يرعاها ويكلأها بعونه ، ومن أعز أمنيات الأب، وما تقر بها عينه أن يرى ابنته وقد تلبست بروح الإيمان والتقوى، وتدثرت برداء الأخلاق، وتنورت بصفاء الهدى، والتزمت بمبادئها الاجتماعية الخيرة:

ابنيتي يا كل آمالي ويا حظي السعيد

يا قطعة مني، ورمْزَ هنائي الباقي الأكيد

مني إلى العقل الصغير نصيحة الأب الرشيد

ونصيحتي مني إليك جعلتها نظماً قصيد

تبقى على مر الزمان وكل يوم في جديد

ولتأخذي منها عتاد الدهر في يوم وئيد

فلعل فيما تنطوي نجواك في اليوم الشديد

وإذا قسى رب القساوة فاقرئيها في مزيد

ثم اذكريني وافهمي ما قلته الفهم الأكيد

فعليك بالدين الحنيف فإنه الذخر الرصيد

وتخلقي أخلاق قوم مجدهم باق تليد

أجدادك الغر الأماجد رأيهم رأي سديد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تاريخهم بالحق والأخلاق والشرف الوليد

باق على كر الدهور وشعلة للمستفيد

وتيقظي فحضارة الطاغوت تبديل المجيد

وحذار من تيارهم أن يخدعوك فلا محيد

وعليك بالإخلاص للمدن الزهية والصعيد

وهو يوصيها بطلب المعرفة والتحصيل العلمي، وأن تلتزم بالقيم العليا، وتؤدي واجب دينها وأمتها ووطنها.

وطن به كانوا بناة الأمس. والأمس التليد

آواك بين رباه، بين رياضه، بين الحصيد

رباك بين أحضانه فحذار من نكر الحميد

ومن المعارف فانهلي عذباً بإخلاص شديد

وتدرعي بالعلم ضد الجهل في حرب الجديد

وتحركي بالواجبات ولا تكوني كالجليد

وابني وكوني قدوة للجيل.. للجيل الجديد

هذي الحياة شعارها أن دائماً هل من مزيد

وإذا غدوت إلى الأمومة فاحفظي حق الوليد

ربيه عضواً نافعاً باللين والرأي السديد

قولي له عن دينه عن أرضه ألا يحيد

واروي له تاريخه من بدئه الماضي البعيد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذي نصيحة والد يرجو لك الحظ السعيد

دامت لك الأيام في بحبوحة العيش الرغيد[1]

وقد قابلت الشاعر وتذاكرت وإياه الشعر حول البنات فبعث لي بهذا الديوان وقال إن ابنته ذكَّرتْهُ بالقصيدة بعد أن امتد العهد طويلاً، وأنها ما زالت عالقة بذهنها، تستشعرها دائماً، وتستلهمها، وهي مدعاة إلى الالتزام الشرعي، وحافز على أداء الفرائض والنوافل.

وعبدالرحمن العشماوي يستمد من ابنته (شذا) صفاء الحياة، ويرى فيها الراحة والسكون وهي عون للأب تجلو عنه أثقال الحياة اليومية، فهو مرهق تعب حتى يلقاها فتزول عنه هواجسه وهمومه:

ياليتها تُرفَعُ في الأُفُقِ

لكي تبصرها كلُّ النساء

يا شذا...

يا نبع أحلامي ويا صفْوَ حياتي

يا نسيماً...

ينشر العطر ويُحيي بسماتي

يا شذا...

يا ديمةً تسقي غصون الكلماتِ

يا ربيعاً...

(١) ديوان (ندى حبي) ٤٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يسمع الأزهار أحلى النغمات

يا شذا...

يا مقلة الحب التي يرسل سحر النظراتِ

يا شذا...

يا طفلتي يا زهو أشواقي وحبي

يا شذا

يا منحة الله التي تُسعد قلبي

يا قناديل الرِّضى

تكشف ظلماء جراحي

وتمد النور في سرادب كربي

يا شذا لو تعلمينْ..

ما طوى قلب أبيك الحرُّ

من حزن دفينْ

من أزاهير اشتياق وحنين

من عذابات جراح وأنين

يا شذا لو تعلمين

عالم اليوم غريق في محيطات الشقاء

في الهوى في غفوة الشهم

لعلهـــا...

وصحـــو الأدعيـــــاء[1]

(١) د. عبدالرحمن العشماوي، يا ساكنة القلب ٢٨، دار عالم الكتب/ الرياض، ١٤٠٣هـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشاعر عبدالكريم السيلاني يخفقه وجدانه حين طلبته ابنته (غيداء) أن يأتي لها بالقمر، فتذكر استجابته لأوامرها الدائمة غير أنها جنحت في طلبها المستحيل هذا فقال:

غـيـداء تطلبني القـمـر ... هذي الحكاية والخـبـر

لـي طـفـلـة هـي نـاظـري ... هـي درتـي بـين الـدرر

مـا أن أراها تبـتـسم ... حـتى يفـارقني الكدر

عـصـفـورة أحـلامـهـا ... في طهـر قطرات المطر

حـركـاتهـا تضـفي على ... قلبي السـرور إذا انحـسـر

لا تسـألوا عن دفـتـري ... وعن الكتـاب ومـا انكسـر

عـبـثت أناملهـا بما ... قـد بان أومـا قـد سـتـر

في ذات ليل قـد بدا ... بدر السـمـاء لمن نظر

وبنيـتي تلهـو على ... كـتـفي وقـد طال السـمـر

نظرت إلى أعلى وقـالت ... يـا أبي هات القـمـر

وتـكـرر الـطـلـب الـذي ... لا أسـتطيع به الظفـر

أبـنـيـتي إن الـذي ... تبـغـينه بعـد البـصـر

بعـد السـلام من الذي ... طلب السـلام من الخـور

بعـد الحـنان من الذي ... نصب المنايا للبـشـر

بعـد الوفـاء من الذي ... خـان الشـريعـة واحـتـقـر

أبنيـتي فـدعي القـمـر ... بـين الـكـواكـب والـدرر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يـزهـو ويـؤنـس كـل مـن ذاق المـرارة والـضـــــرر
فلعل مـــا قـــد بكت حـزنا وأرقـهـا الـسـهـر
تشكو فـــراق وليـــدها في القدس حين رمى الحجر
مـا انصاع يومـاً خـاضعـاً لـقـــــرار ذاك المؤتمـر
فلعلهـــا غـــيـــداء أن تسلو إذا رأت القـــمـــر
وتـبـث شـكـواهـا إلـى رب العـبـاد مع السـحـر
يا رب فـــانصـــر ملة الإسـلام وأخـذل من كـفـر
يا خـيـر من ندعـوه يا أمل الجـريح المنكسـر
غـيـداء فلتـدمي القـمـر بـين الـكـواكـب والـدرر
يـزهـو ويـؤنـس كـل مـن ذاق المـرارة والـشـــــرر[1]

محادثة البنات بعد تجاوز مرحلة الطفولة:

أخذت المرأة المسلمة تقف مع الرجل المسلم ولا سيما ذوى القرابة، فهي تشد أزره، وترفع مكانته ، وتقيل عثرته ، وتبذل النفس والنفيس، وتعضد بعقلها الراجح ؛ ومن هنا كانت المرأة الظل الظليل لذوي رحمها من الأب والأخوان، والأبناء، ومن أوائل المواقف الإسلامية موقف خديجة بنت خويلد وكذلك فاطمة بنت أسد زوجة عمه أبي طالب من الرسول صلى الله عليه وسلم كما حدثنا عنه عبدالله عفيفي: «على ذلك النسق البديع الفريد، سارت خديجة أم المؤمنين في تثبيت قلب النبي، وترويح نفسه ، وتأييد أمره . فلم ير شيئاً يحزنه، من رد عليه، وتكذيب له، وسخرية به، ونفور منه، إلا فرجت صدره، وأذهبت حزنه، وأثلجت قلبه، وهونت الأمر عليه.

(١) مجلة الأسرة ع ٧٤، جمادى لآخرة ومجلة الشقائق ه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تلك هي خديجة التي بعث الله إليها تحيته، فنزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: أقرئ خديجة السلام من ربها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك. فقالت: لله السلام ، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

ولعمرك أنها لمثوبة من الله ما ظفر بها أحد من السابقين الأولين ، والخلفاء الراشدين . ذلك لأن موقفها يومئذ أبر برسول الله، وآثر في بسط دعوته ،وتأييدأمره، من مواقف الأبطال المعلمة، على الخيل المسومة.

وفي السنة التاسعة من ذلك الجهاد العظيم ، ماتت خديجة . فاشتد حزن رسول الله على أعز نصرائه، وأصدق وزرائه. ماتت خديجة ولكن عظمة المرأة لم تمت. فقد خلفتها على رعاية النبي وتأييده وتثبيته وتدبيره، امرأة لم تكن دونها رأيا، ولا عطفا ولا عقلا، ولا جاها ولا منصبا ، وتلك هي فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب بن عبدالمطلب عم النبي، وأم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قائد المسلمين، وصهر النبي الأمين.

لم تكن فاطمة رضي الله عنها خلفاً من خديجة فحسب ، بل كانت كذلك خلفا من أبي طالب في الذود عن النبي، والانتصار له، ورفع الصوت حرا نديا في سبيله . ولم يزل ذلك شأنها، حتى هاجر رسول الله إلى مهبط أمنه، ومستقر أنصاره، فتبعته هجرته . فكان بيتها في المدينة، كما كان في مكة، مآبا طيبا، ومقيلا كريما.

وكما كانت فاطمة في نصرة الله، وتأييد رسوله، منقطعة القرين - كذلك كان لها رسول الله يوم لحقت بربها . فقد كفنها في ثوبه، ونزل في قبرها، واضطجع فيه. فكان حقا على القبر أن يشرق بنور الله، ويعبق بروحه ويفيض برحمته.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ما رأيتك صنعت بأحد ما صنعته بهذه. فقال: إنه لم يكن بعد أبي طالب أبر بي منها»[1].

فلا غرابة أن يلجأ الشعراء إلى بناتهم يبثونهن مكابدهم وأشجانهم وينشدون المدد منهن.

وشيرين ابنة حمزة شحاته كان لها دور في إمداده ببعض المال أثناء غربته بالقاهرة فإذا ما تأخرت رسائلها ، فإنها تضطرب أحواله، ويفقد ما يقتات به وما يدفعه لأجرة الدار، فهو يشتد غضبه على ابنته ويذكرها بألفاظها المعسولة أين هي الآن ، وكان من الأولى المبادرة يقول مقتفياً أثر أحمد شوقي:

سلامٌ من صَبا بردى أرقُّ ... ودمعٌ لا يُكفكَفُ يا دمشقُ

وأشواقٌ تضيقُ به الصدورُ ... يُخشخشُ في مسالكها البَهَنق[2]

وأسئلةٌ عن الأحوال طالت ... تحمّلها إلى مغناك خَلقُ

وليس سوى سُكاتِك من جواب ... تكاد عليه من زعل تطُقّ[3]

فماذا عنك بعد فراق عامٍ ... وأين به صريخُك والمِشَق[4]

وأين رسائلُ الأشواقِ ترجى ... وبعض الشوق للأحباب حقُّ

فنحن هنا بلا وطن وأهل ... نعيش سُدى على حال تشق

(١) المرأة في جاهليتها وإسلامها ٢: ١٢٦.

(٢) يخشخش: يصوت بالخشاخيش، البهنق: محرفة عن (الهنبك) وهو الأحمق، أو النمام.

(٣) السكات: لعله أراد السكوت.

(٤) المشق: المغني الذي يرفع صوته بالغناء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلا شغل يجيب لنا فلوسا ولا دخل يطول عليه عنق

وقد مُنِعَت حوالة كل شهر وكان المنع مشكلة تَدِقّ

وقالوا: المنعُ أيامٌ قصارٌ فطالت والمطالُب لا تَرِق

يُظَنّ بنا الغنى والحالُ زِفتٌ وخير طعامنا عيش ودَقو[1]

ألا يا بنتَ يعرُب خبرينا متى تصفو الواردُ وهي رَنق[2][3]

وكم من فتاة تحملت مسؤولية والدها أو والدتها أو الأسرة، بل كم من فقدن أزواجهن وهن في مقتبل العمر، ووقفن زهرة حياتهن، وصددن جماح الرغائب في سبيل تربية أولادهن ، وضحين بمباهج الدنيا كلها مؤثرات المكابدة والكدح لأولادنا حتى أنك لا تجد شريحة من الشرائح إلا وفيها مثلا من هذا النوع، فالمرأة تقوم بدور الأبوة والأمومة معا في حالة غياب الأب تماما كما يفعل الآباء.

والرجل حين يفتقد الابن فإن البنت تحتل المكانة تلك فتحمل أثقال الأب في أمراضه، ووهن شيخوخته، وهو لا يقتصر على همومه الذاتية حين يحادث ابنته إنما يشركها في توجهاته الفكرية وآماله المستقبلية، يقول حمزة شحاته:

يا أبنتاه: أديري رأسك

في أُفق الأحلام

(١) دقو لعله يعني (الدقه) وهي الزعتر المسحوق!!.

(٢) الرنق: الماء الذي فيه تراب الكدر.

(٣) حمزة شحاته، الديوان ٢٢٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وانتظري - مثلي

أن يتحقَّق - حُلم منها

سيطولُ الليل... نَعَم سيطول

ولكن ليس إلى غيرِ نهاية

لم يَمُتِ الفجر

والنور ولُود

والصمت المطبقُ ينسُجُ في بطء

أكفانَ الظلمة بألوف الأيدي

يَغزِلُ رايات.. تحملُ شاراتِ الإصرار

والصمت عنيد يا ابنتاهُ

والصبر رمادٌ تكمُن فيه النار

وسكون القرية مفتاحُ الأملِ الموعود

ما زال يُلجلجُ في الأقفال الصدئة

ويحركُها من نوم طال[1].

والفقي يشتكي لابنته إدبار الدنيا وجدبها فقد كان يمرح في رياضها الغناء، واليوم أدبرت عنه وولت لكنه مستسلم لقضاء الله وقدره، ومؤمن بتصريف الأحوال وتقلبها يقول:

ابنيـــتي ! ولقـــد رعـــيـ ـــتك طفـلـة بـين المـراضـع

(١) حمزة شحاته، الديوان ٣٣٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حتى استويت خريدة تختال ما بين الروائع
فكأنها السحر الحلا ل، كأنها الأمل المسارع
واسيت قلباً مزقته ه الماضيات من المباضع
قدر أطاح بمقلتيه ه إلى التراب إلى المضاجع
كان الضياء له.. وكان الروض يهزج بالسواجع
فغدا كقفر.. لا طيور ولا زهور، ولا منابع
لكنه ما ضاق ذرعاً، واستط ال على مصائبهِ القوارع
فهو القضاء.. وجل ربي عن منازعة المنازع
لله فينا الأمر، تحمـ ده العمائم، عانياتٍ، والبراقع
لرضيت منه بما قضاه، رضا المنيب له المطاوع
كانا ودائع، فاسترد بحقه مني الودائع
ولقد حباني بالعزاء، فأزهرت مني البلاقع

ثم هو يسدي النصح كي لا تغتر بزخرف الحياة، ولا يكن همها جمال الثياب وكثرة الحلل فإنها زائلة، وعليك الالتزام بالتوجيه الرباني، والعقلانية في التعامل والاعتدال في تصريف الأمول، وأخذ الحيطة لما يستقبل من الأيام:

واستل من قلبي المواجع داميات، والفواجع
وبدوت أنت فكنت ترياقاً، جبرت بِه الصَّوادع
كنت النسائمَ ناديات، بعد هاتيك الزعازعْ
فكُنِي الضميرَ الحر تبدو من هُداه لك المطالعْ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هو للورى ذو الرشد والتـ ـقويم والأيدي النواصعْ
إني أخاف عليك من زهو الملابس والرصائعْ
وأخاف من عبث الغرور، فإنه بئس المشايعْ
أولى الصنيع.. فليس أكرمُ في الحياة من الصنائعْ
فإذا أخذت بما أقول، حَمَتْكِ سابغة المدارعْ
ورَعَتك أفئدة الخلائق، رَعْيَ صَادقة الشرائعْ
أنا راحلٌ عما قريب، مخبتٌ لله ضارعْ
فسقتك من بعدي المناهلُ سَقيَ حالية الهوامعْ

وهو يقنعها بتجارب الحياة التي محضها وسبر أغوارها، وهي مشاهدة للعيان، فما المظاهر الأنيقة ، والأشكال البراقة إلا طيف زائل لا قرار له:

ما في الحياة وأهلها إلا القليل سوى السفاسف
لا يأنفون من الحضيض ويأنفون من المشارف
يُلقُون بالفكر الوضيء وبالشعور إلى المتالف
من أجل متعة ساعة بين اللذائذ والمتارف
ولقد يلام الحر من حين يسخر بالزخارف
أو حين يعمد للفرا ر من المباذل والمقاصف
ما عندهم قدر لأفكار الكرام ولا العواطف
لا يعرفون الخوف إلا من كريمات المخاوف[1]

(١) محمد حسن فقي، الأعمال الكاملة ٧/٨٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والشاعر عبدالرحمن آل عبدالكريم يدلف إلى ابنته)غادة) بعد أن أعيته الحوادث، كي تخفف عليه من وطأة الحياة التي أبكت عيونه، فتكالب الإنسان وخداعه ، ومكره الخفي، وتجاوز حدوده على الشاعر قد فجرت مشاعره، وألهبت جوانحه، فأصحاب الحقد الدفين لا يتركونه بحاله، إنما يؤججون نار الفتنة من حول الشاعر بل إن القريب والقرين كلاهما ينسج مؤامراته كي تنال من الشاعر فإذا هو يفزع لابنته التي هي بمثابة الطبيعة التي يهرب إليها الرومانسي، فهي تضمد جراحه، وتشفي غليله، وتجلو همومه، وتمده بالحنان والرقة والملاطفة التي يفقدها عند من يحيطون به، فهي مصدرالحب، ومآل الصديق الذي يصدقك:

أَدْرِكِـــيني أَدْرِكِـــيني ... غَـــادتي كي تُنْقِـــذِيْني

تُنْقِـــذِيْني من نَحِـــيب ... قَـــرَّحتْ منه جُـــفـــوني

إنَّني في هذه الدُّنيـــا ... سَـــعِـــيـــدٌ كَـــحَـــزين

كُلَّمـــا رُمتُ التَّنائي ... عن مَـــتَـــاهاتِ السنين

عن بُنيَّـــات الليـــالي ... عن ذَوِيْ الحـــقـــد الدفين

واجـــهـــتني تُرَهاتٌ ... من قـــريبٍ أو قـــرين

همُّـــه التنقيب والبحثُ ... عن الأمـــــر المشين

ثُم ولى لا يُبـــالي ... بِامـــتـــعـــاضي وأنيني

أَحـــمـــدُ الله لأني ... لم أُضَـــيِّع أمـــر ديني

وإذا هِمْتُ اشـــتـــيـــاقـــا ... للمـــعـــالي أيَّ حين

صُعُداً طوَّفتُ في الأقذالِ ... بـــالحـــبـــلِ المتينِ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَو مَا تدرين أنّي دائماً أُخْفِيْ حنيني

أجعلُ الصبر سلاحي مِلء سمعي وعُيُوني[1]

ولما التحم القصيبي مع العمل أدرك معاناته، وذهل من تكالب الناس على المصالح الذاتية ، وتبصر في العقبات التي تعترض سبيل الإداري المثالي ، فالناس كالأفعى الصّل السريعة، السامة القاتلة، ومثلهم كمثل العقارب التي تلسع في لمحة خاطفة، وهو في خضم العمل تدعوه ابنته (يارا) إلى رحلة أسرية لكنه يعتذر إليها، ويؤثر معالجة قضايا العمل:-

أبي إلا تصحبنا إنني

أودّ أن تصحبنا يا أبي

وانطلقت من فمها آهةٌ

حطّت على الجرح.. ولم تذهبِ

وأومضت في عينها دمعة

مالت على الخد.. ولم تُسكبِ

وعاتبتني. كبرت دمُيتى.

وهي التي من قبل لم تعتبِ

أهكذا تهجرنا يا أبي

لزحمة الشغل.. وللمكتب

والشاعر القصيبي يخاطب ابنته يارا ، لكنه لم يتعرض لحالتها غير أنه جعلها متنفسا يحادثها عن حالته ويبث أشجانه لهذه الطفلة، فالأنا تظهر

(١) عبر السنين..

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في قصائده حتى مع أحب الناس إليه فهو يصور لنا انهماكه في الأعمال العامة في الوزارة:

يا أجـــمل الحلوات.. يا واحـــتي
عـــبـــر صـــحـــارى الظمـــأ الملهب
أبوك مُـــذ أظلم فـــجـــر النوى
يعـــيش بين الصلّ والعـــقـــرب
يضـــحك.. لو تدرين كم ضـــحكة
تنبع من قلب الأسى المُتَـــعب
يلعبُ.. والأحـــزان في نفـــســـه
كـــحـــشـــرجـــات الموت لم تلعب
يـــودَ لـــولا الـــكِبَـــــــر لـــو أنـــه
أجـــهش لما غـــبت «لا تذهبي»[1]

وإذا انتقلنا إلى قصيدة أخرى في عام ١٤٠١هـ نجد أن القصيبي يحكي سيرته الإدارية من خلال مداعبته لابنته يارا فاتخذ المنهج ذاته، فيحملنا ويحمل ابنته معاناة الشيب وما يحمله في دواخله من تفطير في القلب، الذي لم يصمد أمام صراع الحياة، الذي دفعه إلى اليأس من صلاح مقصد الإنسان وعمله:

مـــالت عـــلى الشعـــرات البيـــض تقطفـــها
يـــارا .. وتـــضـــحـــك " لا أرضى لـــك الـــكِبَـــــرا "

(١) غازي القصيبي، المجموعة الشعرية المتكاملة ٦٠٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يا دميـــــتي ! هبك طاردت المشـــيب هنا

فـمـا احـتـيـالك في الشـيب الذي اسـتـترا؟

ومـــا احـــتـــيـــالك في الروح التي تعـــبت؟

ومـــا احـــتـــيـــالك في القلب الذي انفطرا؟

ومـــا احـــتـــيـــالك في الأيام توســـعني

حـــرباً .. وتســـألني: " من ياترى انتـــصـــرا ؟"

يا دُمـــيـــتي ! حـــاصـــرتني الأربعـــون مُـــدىً

مـــجنونة وحـــــراباً أدمت العُـــمُـــرا

فـــمن يرد لي الدنيـــا التي انقـــشـــعت ؟

فـــمن يعـــيـــد لي الحلم الذي عـــبـــرا؟

مـــا الشـــيب أن تفـــقـــد الألوان نضـــرتهـــا

الشـــيب أن يســـقط الإنســـان مندحـــرا

ومـــــا بكيت على لهـــــوي ولا مـــــرحى

لكن بكيت على طهـــري الذي انتـــحـــرا

إذن فالبنت أضحت واحة خضراء فواحة العبير، لأبيها يبثها أشجانه وآلامه، ويبوح بأسراره، ولواعج نفسه وهي جديرة به ولو فعلت البنت مثل هذا وجعلت من أبيها مستشاراً تبوح له بآلامها وآمالها لوجدت نعم الناصح والمعين بإذن الله.

ويصف زمخشري بناته بعد موت أمهن، ويمتزج معهن في حزن شديد وكأن حزنه على زوجته يماثل لوعتهن أو أشد:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يا بناتي وحسبكن شقاء ... أنني بينكن أبكي شبابي

عجبا للزمان ينحر آمالي ... ويحتث خطوه في طِلابي

غرَّه كلما كبابي شوط ... أواصل السعي ، ممعناً في الذهاب

يقطف البسمة الحزينة مني ... لا يبالي ولا يرق لما بي

ظلمة القبر لا تزيد بها الوحشة ... عما أحِسُّه في إهابي

واللظى الجاحم المعربد في الصّدر ... عسوفا مجلجلا في انتحابي

فالعفاء المريع ليس سوى الواقع ... يطوى حياتنا في ثياب

يابناتي وحسبكن سكوتي ... وبي الهول ثائرا كالعباب

أي شئ تُردْنَ مني وإني ... ضائع مثلكن مني صوابي

وفي فمي من لواعج الصدر فيض ... قد جرى صاخبا يرجع اضطرابي

وبجنبي زافر يتلظى ... صاعدا ذاهبا بقلبي المذاب[1]

مخاطبة البنات عن بُعد:

والبارودي يتألم لبعده عن بناته بعد أن غُرِّب إلى جزيرة سرنديب، لأن أطيافهن تتراءى له لحضورهن الدائم في ذهنه، بل إن منظرهن مستقر أمام عينه مع طول المسافة فقد قال حين رأى طيف ابنته (سميرة) في المنام في مستهل غربته[2].

تأوَّب طيف من «سميرة» زائر ... وما الطيف إلا ما تُريه الخواطر

طوى سُدفة الظلماء والليل ضارب ... بأرواقه والنجم بالأفق حائرُ

(١) مجموعة النيل ٢٨٤.

(٢) البارودي، الديوان، شرح علي عبدالمقصود عبدالرحيم ص ٢٣٦ بيروت دار الجيل ط. عام ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فيا لك من طيف ألم ودونه ... محيط من البحر الجنوبي زاخرُ
تخطَّى إلى الأرض وجدا وما له ... سوى نزوات الشوق حاد وزاجرُ
ألمَّ، ولم يلبث وسار وليته ... أقام ولو طالت على الدياجرُ
تحمَّل أهوال الظلام مُخَاطِرا ... وعهدي بمن جادت به لا تُخَاطِرُ
خُماسية لم تَدر ما الليل والسرى ... ولم تنحسر عن صفيحتها الستائرُ
عقيلة أتراب توالين حولها ... كما دار بالبدر النُجُومُ الزواهرُ
غوافل لا يعرفن بؤس معيشة ... ولا هن بالخطب الملم شواعرُ
تعودن خفض العيش في ظلِّ والد ... رحيم وبيت شيَّدته العناصرُ
فهن كعنقود الثريا تألقت ... كواكبه في الأفق فهي سوافرُ
تمثلُها الذكرى لعيني كأنني ... إليها على بُعد من الأرض ناظرُ
فطورا إخال الظن حقا وتارة ... أهيمُ فتغشى مُقلتي السمادرُ
فيا بُعد ما بيني وبين أحبَّتي ... ويا قُرب ما التفت عليه الضمائرُ
ولولا أماني النَّفس وهي حياتها ... لما طار لي فوق البَسِيطةِ طائرُ
فإن تكن الأيامُ فرَّقن بيننا ... فكُلُّ امرئ يوما إلى الله صائرُ
هي الدارُ ما الأنفاسُ إلا نَهائبٌ ... لديها وما الأجسامُ إلاعقائرُ
إذا أحسنت يوماً أساءت ضُحى غَدٍ ... فإحسانُها سيفٌ على الناسِ جائرُ
تَربُّ الفتى حتى إذا تمَّ أمرُهُ ... دهتهُ كما ربَّ البهيمةَ جَازِرُ
لها ترةٌ في كل حيٍّ وما لَهَا ... على طُول ما تجني على الخَلْق واترُ
كثيرةُ ألوانِ الودادِ مليَّةٌ ... بأن يَتَوَّقاها القرينُ المُعَاشِرُ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالقارئ يشاطر البارودي غربته ووجده على أسرته لاسيما بناته اللاتي أُبعد عنهن، فهن عالقت بأحاسيسه، مستحوذات على تفكيره، وإن أخذ يورد أمثال تخفف عليه وعلى غيره لكنها تأمل الصابر المفكر . ودعوة من الشاعر إلى التأمل في معكرات صفو الحياة والتحذير من الركون إلى المباهج والانغماس في الملذات.

والمغربي يبعث برسائله الشعرية إلى ابنته (أميمة) حين كانت تدرس بأمريكا وهو يفتقدها في بيته، فهي شذا الأزهار، وهي قرة العين، وهي نبع البهجة في خضم الحياة، ونكد الكهولة، كانت بسمته وريحانته في داره وهي بمثابة العطر الذي يجدد حياة المرء وينعشه:

أبنيتي ياحلوة الشمائل ... ويا شذا الأزهار في الخمائلِ

قرةُ العينين يا ضياهما ... يا وردة تَفْتَرُّ في غلائلِ

ياكوكباً يسطع بالبهجة والنور ... على ليل شبابي الأفلِ

زهرة تنفح بالطيب وبالـ ... عطر على زهر حياتي الذابلِ

دعوتُ لك الرحمن ما أجلَّه ... في هذه الأسحار، في الأصائلِ

والشوق في قلبي وفي مشاعري ... دفقٌ من الحب وفي رسائليِ

فكيف حال الشوق يا أميمتي ... وكيف حال الدرس والمسائلِ

وابنته متواجدة في قلبه ومشاعره، وأمام عينيه في أحلام يقظته ونومه، هي العصفور المغرد في بستان حياته، وهي ملء عقله يتوجس عليها في صحتها وفي عملها ودرسها، يريدها متكاملة الجوانب:

الدار يا أميم ما عهدتها ... مزدانة بالعشب والخمائلِ

وبالأزاهير التي أحببتُها ... وبالعصافير وبالبلابلِ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد بدا النرجيل في أشجاره ... تحفه الغصون كالجدائلِ

تخشى عليها الريح أو تضمه ... كأنه الوليد في الكفائلِ

والبرتقال لم يزل مخضوضرا ... على الغصون قائماً كمائلِ

والجو ساج والهواء كأنه ... أنفاسُ صبح أو ندا مناهلِ

وهو يدلف إلى غرفتها، فتثير أشجانه، الدمى والتصاوير والهدايا التي جلبها لها، لكنها بلا حياة عندما غادرتها ابنته إلى ديار الغربة:

غرفتك الزهراء يا أميمتي ... فيها تصاوير حمام الزاجلِ

تكاد لو دبَّت به الروح شدا ... وأنَّ من شوقٍ أنين الثاكلِ

عرائس الأمصار في مكانها ... لكنها ترنو بظرف سائلِ

متى تجئ؟ هل أنا أجيبها ... أنا على وعد لقاء عاجلِ

والكتب يا أميم في صوانها ... لكنها في صمتها كالذاهلِ

والكل مشتاق إليك آمل ... يحقق الله رجاء الآملِ[1]

ويرسل المغربي قصيدة بعنوان (رسالة من والد) إلى ابنته، تفيض بما يعتلج في أحاسيس الآباء نحو بناتهم، فالبنت بمنظار الأب شعاع من الحسن، ورحمة وأي رحمة إنها الرحمة البيضاء، وهي غدير مشرع من الحنان صافي الماء نقي بالهواء إن من تحمل هذه الصفات لا ريب من كونها تهز مشاعر أبيها حين سفرها وبقائها في الغربة:

يا ابنتي يا سنا الشعاع من الحسن ... بريئاً كالرحمة البيضاءِ

ديراً من الحنان طهورا ... يتجلى في طلعة من بهاءِ

(١) محمد الحسون، محمد مغربي حياته وشعره ٤٧٩، مخطوط.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ليت شعري وقد تنازعنا البينَ ... أتدرين لذعة البرحاءِ

كيف لا تكحل العيون بمرآك ... وقد كنت بهجة للرآئي

كيف يقوى على فراقك قلبي ... كيف أرضى البعادَ بعد اللقاءِ ؟

ومتعة الأنس بمجالسة الأسرة من بنين وبنات متعة لا تعادلها متعة في نظر الوالدين، لاسيما حين تكون المؤانسة والمداعبة، والحوار الفكري يهيمن على المجالس، فينبغي للأولاد آن يشبوا على ملاطفة الوالدين وبث روح الحياة في المنتدى الأسري، وأن يكون الابن أو البنت هاشاً باسماً لوالديه وأخوته، ولا يكون مكفهر الوجه عابساً ولا مقطب الجبين، فليس هناك بخل أشد من بخل الأولاد على والديهم بالمؤانسة والمضاحكة والملاطفة، ونحن نجد أثرها في نفسية الشاعر حين افتقدها بسفر ابنته:-

كنتِ أنتِ السمير في مجلس ليلي ... فمن لي بمجلس في المساءِ

طاب فيه الحديث وانطلق الفكر ... فما شئت من فنون الأداءِ

طرفة تملأ الجوانح بشرا ... ودروساً تُلْقَى بلا إنشاءِ

والأضاحيك كالمزامير رنت ... تبعث البشر في الوجوه الوضاءِ

مجلس فيه للنفوس حياة ... بعد أين وراحة من عناءِ

كنت أنت الفخارُ إن ذكر الدرس ... ففيك الثناء كل الثناءِ

كنت ما أنت يا ابنتي كل معنى ... من معانيك حافل بالعطاءِ

فإذا شاقك الحنين إلينا ... وتذكرت في جوى الغرباءِ

فاذكري أننا إليك ظماء ... صانك الله للقلوب الظُمَاءِ

واذكري أننا ارتضينا لك البعد ... سبيلاً للمجد للعلياءِ

واذكري أننا نطل على المجد؟ ... على دربك الطويل النائي

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يا ابنتي يا ابنتي سفيرا إلى العلم ... حفيا بالفكر بالآراءِ

لك من نفسك الطموح إلى المجد ... عزاءٌ من لي ببعض العزاءِ[1]

وأول من تحدث عن الابتعاث في بلادنا محمد مغربي حينما ودع ابنته للدراسة في أمريكا في القصائد السالفة وهذا إبراهيم بن سبيل يتحدث عن ابنته وفاء:

حسبوا لي عشر ساعات فقط ... حينما أبلغت هذا قلت " طط

أين ساعاتي التي أمضيتها" ... غير تلك العشر والباقي فرط

أي جهل منهم في مستوى ... جامعات العرب ذا عين الغلط

لغة الضاد التي علمتها ... في ديار العلم في أعلى نمط

لغة تسمو على كل اللغى ... ليس في قولي ادعاء أو شطط

أين منها لغة غربية ... رطنهم فيها " كنوناة "القطط

ويتحدث بلسان (وفاء) عن طبخها بمناسبة زواجها وانتقالها مع زوجها إلى أمريكا:

قال سعد تذكري يا وفاء ... أي وقت يعد فيه الغداء

بادري بالطعام من كل صنف ... وعلى رأسه يكون الحساء

أحسن الأكل ما شويت بفرن ... ليت شعري وأين مني الشوا

والمطازيز والجريش لنفسي ... خير ما تطبخين يا حسناء

قلت يا سعد إنني " ست بيت ... إنني في شؤونه نفلاء

أنا في الطبخ همتي تُجارى ... لي في الطبخ همة قعساء

(١) محمد الحسون، محمد مغربي، ٤٨٥ مخطوط.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن طبخت الجريش في اليد يجري حبة طافح وباقية ماء

وينتقل قلب الشاعرة سلطانة السديري مع ابنتها (نداء) إلى رحلة العلاج، فالأم مثقلة بمصير ابنتها، وبتباعد العهد عنها وتتمنى قربها، بل معانقتها وملامسة شعرها الذي يمثل لمسة الحنان الأمومي:

ندائي أجيبي النداء البعيد فقد أثقل القلبَ هذا الضنى

وأصبحتُ ظلاً شديد الشرود تحملت في البعد كل العنا

عسى الله يوماً بقربٍ يجود وتشعر روحي بطيب الهنا

ندائي: فؤادي إليك يعود ويطوي المسافات حتى دَنَى

فيلثُمُ شَعْرَكِ.. ورد الخدُود يعانق وَجهاً منير السنى

ندائي .. وقلبي الحنونُ الودودُ ضمك أنت أعز المنى

وإن أبعدتني عنك الحدود فقلبي يرى عندك الموطنا[1]

ويصور علي الفيفي مكانة الابنة لدى والدها، فهي ملءُ قلبه وفكره وهي نبض فؤاده بل هي حياته ولكن هذا الحب كان نتيجة لصلاح ابنته، فهي رائقة الكلام عفة اللسان، جميلة المنطق، لا تند بألفاظ فاحشة، وإنما حديثها تسلية للفكر والنفس معاً:

يَا ابْنتَي أنت ملوءُ قلبي وفكري أنتِ نبضُ الفؤاد أنت حياتي

جعل الله فيك خير المَزَايا وصفات تليق بالفتياتِ

إن تكلَّمت فالكلامُ جميلٌ يشبه الدُّرَّ رائع النَغماتِ

(١) سلطانه السديري، على مشارف القلب ٩٨، نشر الفرزدق للدعاية والإعلان وهي شاعرة سعودية من أوائل الشاعرات المعاصرات وكاتبة مشهورة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ما تفوهت بالكلام جزافا ... حين يحلو الحديث في الجلساتِ

وردةٌ أنت غضَّةٌ وشذاها ... من رياضٍ جميلةٍ نَضِراتِ

كلما غبتُ يا ابنتي عنكِ فاضت ... مقلتاي بوابلِ العَبَراتِ

وأنت أيتها الابنة الغالية مصدر سروري، وراحة بالي، وجالية همومي فلا غرابة إن اشتاق إليك، وتهفوا نفسي إلى لقائك ومحادثتك، فأنت جماله الحاضر وطيفه إذا نأت بك الليالي والأيام:

لا أُحسُّ السرور يختالُ في الصدر ... ويمحو ما فيه من آهاتِ

واشتياقي يكادُ يحرق قلبي ... وحنيني يُصَعِّد الزفراتِ

وفؤادي دقَّاته في اضطرابٍ ... إذ قلوب الآباء للفلذاتِ

وأرى طيفك الجميل أمامي ... فجر عيد وأَعْيُنٍ ساحراتِ

كلما غبتُ عنك هاجت شجوني ... وكأني قد غبتُ من سنواتِ

لا أرى الفجر مشرقاً يطوي ... الليل ولا سحر أَعْيُنِ الفاتناتِ

لا أرى الورد يُبْهِجُ النفس في ... الروض ولا الغُصن يَرْقُبُ النسماتِ

والخميلُ الجميلُ يُصبحُ مصفرا ... وتذوي ما فيه من زهراتِ

والنسيمُ العليلُ أحسبه الإعصار ... والنار أو لظى العاصفاتِ

لوعةُ الوالد الحنون على الأبناء ... شيء في الصدر كالجمراتِ

إنهم قُرَّةُ العيون ولكن ... أنت نَبْضُ الفؤاد أنت حياتي

تَهدأُ النفس حين انظرُ عينيك ... وتَخشى ما في غدٍ من شتاتِ[1]

زواج البنات عند العرب:

(١) زائر الأمس ٨٩

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سنة الزواج من السنن الكونية التي الهمها الله آدم، وسنها في ذريته، فهو نبي مأمور بأمر الله.

وكانت طريقة تزويج آدم لأبنائه كما يحكي ذلك التاريخ أنه يأتي له التوأم المكون من ابن وبنت فيزوجه بالتوأم اللاحق لكي لا يتزوج التوأمان حتى تباعدت الأسر فلما وجد ابناء الأخوة كان الزواج بينهما. وفي ذلك رد على من يدعي الطوطمية التي يرى الفكر المنحرف فيه أن البداية لمعرفة الأم بلا معرفة الأب . والتزاوج عند العرب بل عند الأمم متعارف عليه فهم يحرمون الأمهات والأخوات والبنات.

ورباط الزوجية رباط مقدس عند العرب توارثوه عن آبائهم وأجدادهم فهم يُعنون به، فهو مقدمة لبناء بيت جديد يتفرع عن أصل ليتواصل البناء الأسري، ولأنه مناط وغاية الأمل للفتى والفتاة ليكون لهما كيان خاص يستشعرون الاستقلال، وتحمل المسؤولية الجديدة ولكي ينجبوا الأولاد الذين هم زينة الحياة في نظر العربي. وكذلك فإن آباء الزوجين يفرحان ويبتهجان بزواج أولادهما، ليشعرا باكتمالهما رجولة وأنثوية وكيما يريا نسلهما. فكم من أب وأم تألم ألما شديدا حين تأخر إنجاب أولاده بنين وبنات فالعربي عنده أن المال والبنون زينة الحياة، ولما جاء الإسلام فضل الأعمال الصالحة فقال تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا» «الكهف ٦٤» من هذه الحب العميق لتواصل النسل وتكاثر الأولاد، فإن المرأة تتمنى وتسعد بحضور زواج أولادها، وكذلك فإن الأب يسعى جاهدا لتزويج أولاده بنين وبنات، بل يعين على ذلك ويبذل في سبيله غالي النوق، ونفيس المال فهذا العربي وزوجه اللذان استشعرا ثقل المسؤولية حينما تأخرت بناتهما عن الزواج وبوحي من زوجته على خلاف ما عُرِفَ الزوجات من العذل عن البذل لا سيما في الشدائد - لكنها من أجل بناتها أشارت عليه فينحر ناقته الوحيدة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

للأعشى وهو متجه إلى سوق عكاظ فقال قصيدته المشهورة التي انشدها الأعشى في السوق فاسرع عليةُ القومِ لخطبة بناته ولم تبق منهن باقية وفيها يقول:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في بقاع تُحَرَّقُ

تُشبُّ لمقرورين يصطليان ... وبات على النار الندى والمحلَّقُ

يداك يدا صدق فكفٌ مفيدة ... وأخرى إذا ما ضُنَّ بالزاد تنفقُ[1]

وتعنى العرب بأفراحهم الزوجية لما يصحبه من معالم الزينة والبهاء ولما يقدم فيها من الموائد متنوعة الأشكال، ولما يجتمع فيها من جموع.

ولممارسة الألعاب، فهي أيام فرح وسعادة، كل فرد في القرية أو القبيلة يكون هاشا باسما لهذه الليلة الأنيسة، فالنساء والفتيات يلبسن أبهى الملابس، والرجال يستعدون لأنواع المحاورات الشعرية، والألعاب الفروسية، ومسابقة الهجن، وقد كتب عبدالله عفيفي عن زواج العرب في جاهليتهم واصفا يومي الأملاك والبناء فقال[2]:

«وفي ذلك اليوم يأخذ ذوو الفتاة زينتهم، ويجمعون قاصيتهم، وينتدون في ساحة دارهم، أو ندى عشيرتهم، وفي صدورهم وليّ صاحبتهم، مرتديا بردى حبرة متخلقا بالخلوق. وهنالك يقدم رجال الفتى، فيهبطون من أكفائهم ونظرائهم مهبطا كريما. حتى إذا اطمأن بالقوم المكان أنشأ ولي الزوج يخطب القوم خطبة ريقة مونقة يكشف فيها عما تناجوا به، وقدموا له، ويقدر فيها المهر عاجله وآجله، ثم يجيبه ولى مخطوبتهم بمثلها، يضمنها الرضا بالقوم أخدانا، وبصاحبتهم صهرا. حتى إذا انتهيا نحرت

(١) ديوان الأعشى، ٢٧٣ تحقيق محمد محمد حسن.

(٢) المرأة في جاهليتها وإسلامها ١: ١٦١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجزر، ومدت المطاعم، وسمع الغناء من مجالس النساء. وتسمى وليمة ذلك اليوم بالنقيمة.

وصيغة العقد عندهم، أن يقول الزوج: خطب . فيقول ولي الزوجة: نكح وذلك حديث ذلك اليوم في أسرتين من سادات أسر العرب وهاماتهم فقد: أرسلت خديجة بنت خويلد إلى أمين قريش ومأمونها محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه - تخطبه وتقول له: أني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك. فرجع محمد صلى الله عليه وسلم، بالقول إلى عمه الكريم أبي طالب بن عبدالمطلب، فرضيه له، وآقره عليه، لما استقر لخديجة من نبل الخلق، وسناء الحياة.

غدا الرسول على خديجة بالرضا، وبأن القوم غادون في أثره. فأرسلت في آلها، ورجال آسرتها، واستأذنت عمها، فأذن لها، وقال: هو الفحل لا يقرع أنفه. ثم نهضت إليه، فخلفته بالعبير، وكسته بردى حبرة حمراء. وأقبل القوم من بني هاشم، وفيهم كريم فتيانهم، ونجيب عشيرتهم، محمد بن عبدالله، فنزلوا من بنى عمهم أكرم منزل وأسناه . وهنالك تداول الخطابة أبو طالب بن عبدالمطلب سيد قريش وإمامها، وورقة بن نوفل - ابن عم خديجة - حبر قريش وعالمها ولما انتهى القائلان نحر محمد جزورين» فجمع بين الإملاك والبناء في وليمة واحدة.

والعرب في جاهليتهم وإسلامهم يجعلون المهر للابنة يقول عنهم عفيفي:« المهر هو صلة الرجل لامرأته، تأخذه كاملا غير منقوص، لا سبيل لأحد إليه، ولا سلطان له عليه. لذلك عدوا من اللؤم المؤتشب في نفس الرجل أن يتخذ حلوان ابنته أو موليته. وذلك أن ينفق على جزء من المهر يبغيه لنفسه.

وأعز مهورهم الذهب السبيك، والأنيق العشراء، يبذلون منها على قدر ما رزقوا من نعمة العيش، وبسط الغنى. على أن حد ذوى الجاه والسؤدد

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

واليسار مائة رطل أو مائة ناقة. وقد يجمع الرجل بينهما. فقد أمهر عبدالمطلب بن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب.

وليس العرب بالذين يساومون في المهر قل أو كثر. وحسبهم من الرجل جهد همته وبعد غايته، وصفاء نسبه، أما ذوى الخصاصة فإنه يحب الرجل أن يسوق إلى امرأته عرضا مما يباع أو يشترى وربما احترش الأعرابي ضبا فاحتمله إلى كفيئته فكان ذلك مهرها وعقدة زواجها. قال أعرابي:

أمهرتها بعد المِطال ضبَين من الضباب سَحْبَلَيَن سبطين

لا حبة نعم لعمر الله مهر العروسين

ذلك مهره الذي أبر به على غيره، وتجمل به على صاحبته، وعده تأنقا في البذل وإفراطا في السماحة. ذلك مهر العروسين.

والعرب يقولون: الزواج ثلاثة، زوج مهر، وزوج بهر، وزوج دهر. أما زوج مهر فرجل لا شرف له يسنى المهر ليرغب فيه، وأما زوج بهر فالشريف وآن قل ماله تتزوجه المرأة لتفتخر به، وأما زوج دهر فذلك الكفء الذي لا عيب فيه».

وتحدث عفيفي عن يوم (البناء) عند الجاهلية فقال:

« لا نجد في مأثور حياة العرب ومعدود أيامهم، يوما أتم بهاء، ولا أعم صفاء، ولا أبدع رواء، ولا أكثر ضياء، ولا أجمع للبهيج الهنى من محافلهم، ومعالم أفراحهم - من يوم البناء. فهنالك يتبارى الفتيان فيلعبون بالرماح، وينتضلون بالصفاح. ويستبقون على متون الخيل ، أما بين يدي الدار، وفي حجراتها، فهم يبسطون الأنماط، ويشدونها على الجدران وعليها النقوش المموهة والصور المزينة - وتلك التي استنكرها الإسلام واطرحها في آعراس المسلمين - وعلى النمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة، يجلس النساء، ويأخذ فتياتهن فيما عف وظرف من ضروب اللهو وفنون المرح.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأما الليل فأحسن ما اكتحلت به نواظر العرب حتى جعلوه مضرب أمثالهم فقال قائلهم:

يا ليلة ما ليلة العروس

فهنالك تجلى الفتاة، ويفرغ عليها الحلي مما تملك وما لا تملك، لأن قومها يستعيرون لها أمتع ما في الحلي من حلي. بل ربما تجاوزوا حيهم إلى ما سواه.

فقد استعار عتبة بن ربيعة وهو في الشرف الصميم من قومه - حلى بني أبي الحقيق لتزف فيها ابنته هند على أبي سفيان ورهنهم ابنه الوليد. فأقام بينهم شهراً ثم رد الحلي موفوراً.

في ذلك الزي البهي تسير الفتاة في حشد من لداتها وأترابها حتى يصلن بها إلى حجلتها. فينشى الإماء يرقصن بين يديها، ويغنينها بمآثر آبائها، والغر الميامين من قومها. وفي ذلك الموطن لا يحتجب النساء عن الرجال».

والأفراح المعاصرة هي امتداد للعادات القديمة مكونة من ليلة العقد «الإملاك» وبعض الدول العربية يسميها «كتب الكتاب» وهي يتم فيها كتابة العقد من قبل المأذون الشرعي المكلف رسمياً، وبعضهم يقدم فيها بعض الأشربة والأطعمة وفي الأغلب تكون خاصة بين أسرتي الزوجين.

وفيها تقدم بعض الهدايا الذهبية. يرى الزوجان بعضهما بلا خلوة ويتم انفصالهما حتى يتم ليلة البناء أو الدخول وتسمى (الدخلة) وفيها تقام الولائم للرجال والنساء وهي متفاوتة بحسب طبقات المجتمع، وتارة يسودها الهدوء فيقتصر الحفلة على أفراد العائلتين وبعض الأصفياء والأصدقاء، خشية الإسراف. ومن خشيته أيضاً أن يصر بعض آباء الفتيات على أن تكون ليلة الإملاك هي ليلة البناء في حفل مصغر لطيف، وفلسفته في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك كي لا يكون هناك إسراف ولكي لا يحمل الزوج ديوناً مادية تثقل حياتهما الزوجية. وهناك من الأسر الشعبية غير الواعية من تسرف في المهور، وتسرف في متطلبات الحلي، وتسرف في الولائم وهذه مما أثقلت كاهل الزوج وأسرته، ونغصت مستقبل حياتهما الزوجية.

أما الأسر الثرية فإن ما يبذلونه لا يؤثر على حياة الزوجين بل بعضهم من الذين يقتصرون الحفلة ولا يسرفون والذين يشهدونها جمع قليل من الأسرتين. فكثيرٌ من الأثرياء أقل إسرافا من عامة الشعب.

والواقع أن قصر النظر والتباهي حولا الزواج إلى استنزاف مادي للمجتمع في الملبس والمأكل، بل إن التعليم الواسع الانتشار وغلبة زواج المتعلمات لم يحد من هذه الظاهرة بل لم يسهمن مساهمة فاعلة في ذلك.

مع أن الأمهات والبنات والآباء كلهم متعلمون لكنهم يجارون المجتمع، فهم بهم يقتدون وعلى آثارهم ينهجون ، فأين الفكر الواعي، والعمل الصالح، ومراقبة الضمير، والخشية من غضب الله؟ لست أدري هل تتحمل المرأة والبنت المسؤولية مع الرجل حين يدفعهن إجبارا لعمل ليس براض عنه؟ وهل يضعف ويستسلم لمجاراة المجتمع من حوله ؟

ومن مظاهر الحفلات في أيامنا هذه ما كان يعد في (الفنادق) الفخمة بمالغ لا تقل عن مائة ألف ريال، وفيه تقدم أصناف الموائد وألوان من الأغذية والأشربة، ثم يضاف إلى هذه أجرة المغنين والمغنيات.

ومن مظاهره عند أبناء القبائل التفاخر بشراء أكوامٍ من الذهب تغطي الرأس تارة وتارة تمتد مع طول الشعر، وتارة يغطي الذهب الصدر ويصل إلى الأحشاء، وليلة الزفاف في قصور معدة، يُنحر فيها عدد من الإبل، والخراف، ويقذف بأكثرها في صناديق النظافة، إن اتسعت ثم يدفع بما تبقى إلى أماكن خالية خارج المدن.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن مظاهرها ما يسمى (بالقود) وهي (المعونة) يلتزم بها أفراد القبيلة بل كل مدعو إلى هذه الوليمة، وفيهم الفقراء والمساكين والمحتاجون الذين يتبرمون لكثرة الحفلات عند الأقارب.

ومن مظاهر الإسراف انتشار ظاهرة دعوة شعراء المحاورة وإعطائهم أجراً إلى جانب المغنيات للنساء، ويطلق عليهن (الدقاقات) أو الطقاقات؟؟.

ومن أفتك هذه المظاهر الألبسة فهي عامة، ذات كلفة عالية، يلتزمن في كل حفلة صغيرة أو كبيرة بملبس جديد لا يتكرر مما أثقل كاهل متوسطي الدخل، وأحرج الفقراء، لا سيما العنصر النسائي. فإنهن يتنافسن في الألبسة.

فهل من معالجة للقضية عند المتعلمات؟ وما دور المعلمات، وفتيات هذا العصر الواعي ؟! إننا ننتظر الحل لسائر هذه الجوانب، فكثير منها تخضع لآرائهن.

والشاعر عبدالسلام هاشم حافظ من أولئك الشعراء الاجتماعيين الذين رصدوا حياتهم وحياة أقاربهم بنبضاتهم الشعرية، فهو قد تحدث عن زوجاته وعن ليلة زفافه وعن مولد بناته(الزهراء) و(انتصار) و(ملكة)، ونظم في زواجهن ومما قاله في زفاف ابنته الزهراء قصيدة رائعة يصف تبسم الزمان، وتجاوب الأزهار، وتألق الأنوار في ليلة الحفلة ويشير إلى حنانه وعطفه عليها:

بَسم الزَّمانُ ورفَّتِ الأَزهارُ ... وتألَّقت في أُفقه الأنوارُ

وترنَّم المقدورُ شدوا حانيا ... تصحو له الأنسامُ والأطيار

وتلألأت يُمْنُ البشائر وانتشى ... فينا الصِّحاب وأقبل السُّمَّار

هي ليلة من عمر أُسرتنا هنا ... نيروزُها بنيتي.. هي التذكار

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بعضي وفلذة كبدي الأولى لها غنّيت في فجري.. هي الأوتار
ورعيتُها وسقيتُها قلبي وهل كالقلب في الدنيا به الإيثار ؟

ثم يعرج على الخطبة وتقدم الخاطب، وترضية الفتاة المتزوجة وتوديعه لها بين الفرح بزواجها والألم لرحيلها من داره:

حتى إذا جاء الخطيبُ يودها زوجا تُظلُّهما المُنى والدَّار
ودعتُها كمودع روحا له سيُحسُّ غُربتها ولا ينهار
أسلمتُها ليد تصون حياتها يحنو عليها.. وُدُّه إكبار

ويتمنى لهما السعادة ويكشف عن علاقة اجتماعية حين يرى أن زوج البنت يصير كالأبناء يعتز به ويعز الأسرة ثم يوصي الزوجين بالتواد والتراحم ومراقبة الله:

ورجاي تَسعد في جوار أليفها وأراهُ كابني.. عِزُّه الأنصار
يتبادلان العطف عبر لقاهما بين السُّموِّ.. ويصدحُ القيثار
زهراءُ .. هذي سنَّةٌ نحيا بها وتقودنا نحو العلا أفكار
هي سنَّةُ (الهادي): حبيب قلوبنا ولنا به نسبٌ هو الأسرار
لجهادنا في الله نُكملُ ديننا نسعى يحفِّزُنا له الإصرار
أوصيك يا ابنة عَالمٍ بأُموره الطُّهرُ والتقوى بها نختار
تمضين عمرك في ظلال تآلف) تحدوكما الأحلامُ والأوطار
ونراكما بين البنين كشعلةٍ تزهو.. وترنو حولها الأزهار
واللهُ أسألهُ يوفِّقُ بينكم وعليكمُ نورُ الهدى مدرار[1]

(١) عبدالسلام حافظ، الأربعون ١٤٦، ط ١٤١٢ - ١٩٩٢

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلي زين العابدين تحدث كثيرا عن بناته في شعره فقد تحدث عن مولد ابنته تغريد وقال قصيدة في زواجها، وسمى ديوانه باسمها، وخاطب ابنته نجوى وقرينها ومما قاله في زواج ابنته الكبرى تغريد قصيدته الرائية :فسجل فيها طريقة الخطبة وأن الشاب تقدم لأبيها فلما ارتضاه قدمه لابنته مادحا له واثقا فيه، مكافأ لها:

قُلتُ يَا زَهرتي أشـــاقك هذا ... أنا أرضـــاهُ دُون نفـــسي أَثِيـــرا

اتوديـن أن يـكُونَ قَـــــرِيـنـاً ... لك إني أراهُ كـــفـــؤاً جـــديرا

تمتـمت زهرتي حَيَـاءاً وقـالت ... لا تسلني فـقـد رضيتُ المصيـرا

قُلتُ بُشـــــراك إنـه ذُو حنـان ... سـوف يسـقـيك عطفـهُ المأثورا

باذليـه الحنَانَ والحب ضعـفـا ... واغـمـري قلبـه حُـبُـورا ونورا

وانثُـري حوله العـواطف شـتى ... واملئي البـيت بهـجـةً وسُـرُورا

وأطيـعـه يا ابنتي فـهُـو بَرٌ ... إن أطعتِ الحَـبـيبَ كـان ظَؤورا[1]

أنـا آثـرتُـهُ بـأغـلـى وأحـلـى ... مـا بروضي فلن يكون كـفُـورا

فاطمئني إليه فهـو (حـبـيبٌ) ... يـقـدر الحب والهـوى تقـديرا[2]

فالأب يوصي ابنته بأن ترعاه بمشاعرها وعواطف الحب، وأن لا تكون سئّالة لوامة لمازة بل ربيع الحياة وملجأ المتعب، وروض الهارب من نكد الحياة إلى واحة المنزل والأسرة، فهو يؤكد أن عوامل الألفة، تبادل الحنان، والعطف على الزوج، طاعته فإن نعم بالأنس ، أنعم به على زوجته.

والشاعر زين العابدين يصور لنا ليلة زفاف ابنته إلى فارس أحلامها

(١) ظؤورا: عطوفا حانيا.

(٢) علي زين العابدين، ديوان تغريد، دار العلم، جدة ط١، ١٤٠٤هـ ص ٦٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهي في أبهى حللها، وأكمل زينتها، وقد تألق جمالها وفاح عبيرها واكتست الحلة البيضاء الأنيقة التي تسحب خلفها، وهي تزدهي فرحا خجلة يلفها الحياء المشوب بالفرح، فيدرك الأب أن ابنته تجاوزت مرحلة الطفولة فاكتمل دوره وأسلمها إلى عش الزوجية .

وهو يرسم لوحة جمالية مسرحية للفتاة في ليلة زفافها، ويصور لنا طريقة الزواج التي يظهر عليها التأثير بما يجري في العالم، فالفتاة تلبس أبهى حللها، وتتأنق كل التأنق ، وتدخل في صالة مصفوفة المقاعد ، وقد أعدوا مكانا جميلا مزدانا بالورود والزهور والإضاءات المتلونة للزوجين ، فيجلسان معا أمام جموع النساء الوافدات، غير أنه يُعلن لهن قبل دخول الزوج وأقاربهن، فيتنقبن، ويحتجبن:

نجوى تُزفُ إلى فتى أحلامها ... أرأيت حُسنَ بهائها وقوامها

أرأيت أُمْلودًا تأوَّد وانثنى ... أشممت ريح المسك مِن أكمامها

أرأيتها مجلُوة مُختالة ... بالأبيض المسحُوبِ من هندامها

أرأيت بسمتها الخجُولة تزدهي ... بحيائها كي لا تشى بُهيامها

ما أجمل الغيَدَاء حينَ يزِينُها ... خجل فيحجبه شفيفُ لثامها

قد كان يحسبها خيالي طفلةً ... فإذا الأنُوثُة أينعت بتمامها

إني لأفركُ ناظري مُتحقّقا ... أصغيرتي بلغت سني فطامها

بالأمس كانت طفلة (دلُوعة ... كانت تُداعبني بلثغ كلامها

كانت نجيَّة خاطري وصفيَّتي ... كم كان يُطربني رقيق بغامها[1]

ويستعيد ذكرياته مع طفولة ابنته التي لا ترى له مثيلا فهو الحبيب

(١) علي زين العابدين، ديوان تغريد، دار العلم، جدة ط١، ١٤٠٤هـ ص٢٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوحيد، وإذا بها تنتقل إلى غريب عنها، والشاعر يصور مباهج الفرح وينتقل مع العروسين خطوة خطوة: فيبدأ بتشابك الأيدي ويقودها في حفل بهيج بين النساء لتعتلى مع فتاها مجلسا في مسرح فسيح وثير مزدهيا بالورود والأزهار وأريج العود تفوح بأطيب الأرواح، وبراعم الربيع من الفتيات الصغيرات يحففن بها، وتبدأ الرقصات المصحوبة بالموسيقى الصاخبة أحيانا وتكون حفلة ساهرة حتى الصباح في كثير من المدن الكبرى.

إنها سنة الحياة. حفل للافتراق والالتقاء في آن واحد الأول مرب محب يسلم فلذة كبده إلى غريب جديد:

واليوم أبصرها يشابكُ كفُّها ... كفَّ العريس قرينها وهُمامها

أرغبت عني والداً وتركتني ... في وحشةٍ تغتالُني بضرامها

أم أنها سُنَنُ الحياة وشَرعُهَا ... أُنثى تَتُوقُ لبعلها وضُمامها

طابت لها الدُّنيا وأسعَدَها الهنا ... في ظل زوجٍ آخذٍ بزمامها

شرعُ الحياة تزوجٌ وتكاثرٌ ... من يغلب الدنيا على أحكامها ؟

صبرا أبا نجوى فتلك شريعةٌ ... لله لا تقوى على إبهامها

لا تجزعن لفُرقة موصولة ... ستظل حانية على أرحامها

لا تستقر لنا الحياةُ بدونها ... إن البقاء يسير وفق نظامها

أبُنيتي إن الحياة غريبةٌ ... أطوارُها في وصلها وخصامها

هي قُوةٌ قهَّارة جبارة ... السعد والإشقاء من خُدَّامها

فإذا ابتسمت بوجهه ألفيتها ... روضا تفيضُ ندى على آرامها

وجه يفيضُ بشاشة وتودُّدا ... أحلى لديه من المنى ومرامها

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والشاعر يسطر وصية للزوجين متخذا من التوجيه الرباني سبيلا لسعادة الحياة الزوجية، فهو يوصي الزوج بابنته ويوصي ابنته بطاعة زوجها وأن تكون له روضة وظلا ظليلا، فكل منهما هو الأنيس المحب الذي يبذل ويغفر الأخطاء، ويتجاوز عن الهفوات:

نجوى ستُصبح في الغداة (لمصطفى) ... يا مصطفى أحرص على إكرامها

هي فلذتي هي مُهجتي هي مُنيتي ... أدبتُها، أعددتُها لإمامها

يا مُصطفاها هل عرفت هديَّتي ... حقق لها الآمال من أحلامها

هبها فؤادك مُخلصاً بوداده ... وارفق بمن ولَّتك أمر زمامها

إني وهبتُك درة مكنونة ... فاحفظ بحق الله عهد زمامها

يا ابن (الملائكة) الذين عرفتهم ... بالنُّبل والأخلاق من أعلامها

نجوى ملاكي أزمعت وتهيأت ... لتنال بينكُمُوا رفيع مقامها

ولديَّ إني ناصحٌ بنصيحة ... فتمسكا بخطامها وسنانها

إن الحياة مليئةٌ بشرورها ... فحذار من أوغادِها وطغامها

ومحمد علي مغربي، احتفى بأبنته أميمة، فهو يبتهج في ليلة زفافها ويتمثلها مشرقة كالبدر، تملأ الدنيا جمالاً وسرورا ويحمدالله ويثني عليه، أن منحها الله الحسن والبهاء، والطهر والحياء، ويتأملها في حلة العروس البهية التي أخذت من التقاليد العربية، ولا بهاء للثوب إذا لم تكن العروس تتلبسه، فهي التي تكسبه الجمال والحياة:

أشرقي كالبدر نوراً وسناء ... املئي الدنيا جمالاً ورواءَ

جلّ من سوّاك حسناً وبهاءَ ... ثم زان الحسن طهراً وحياءَ

ونقاء وصفاء وذكاءَ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إنه ما أحلاه ثوباً عربيا أيّ كف نسجته زهيا

حينما أسدلته كان حفيًا ثم لمّا زنته صار ذهبيًا

كيف لا يزهو وقد أصبح حياً

صانك الله بعين لا تنام ورعاك سميراً في الأنام

ولتعُبًا السَّعد صفواً كالمدام ولتعيشا في صفاء ووئام

في دروب الحب في دنيا السلام

والشاعر لم يقف عند توديعها بل لم يعلن التوديع لكونها دائمة الحضور في قلبه، وكشف عن أمنيات الأب لابنته، فهو يحمل هاجسها الدائم فبعد ليلة البناء، طافت به أمانيه إلى أولاد ابنته وحياته التي يتمناها سعيدة، بل إنه تصور البيت وقد ازدان بعبث الطفولة:

إنني أرقب في يوم قريب طفلةً كالبدر، أو طفلاً نجيبَ

قد كساهُ الحسنُ بالثوب القشيب يتناغى وهو كالغصن الرطب

أين منه إن تغنَّى العندليب !

يملأ البيت ضجيجا وحبوراً حين يصحو حين يحتاج أموراً

ظلَّ في عينك بدرا وأميرا وملاكاً هبط الأرض صغيرا

يملأ الدنيا ابتهاجاً وسروراً

أنتِ في يومي وعند الأمسيات ذكرياتٌ تتجلى في حياتي

يشهد الفجر نديَّ النسمات إنها والله أغلى الدعوات

يقبل الله دعائي وصلاتي[1]

(١) مجلة المنهل، العدد ٧ صفر ١٣٩٤هـ -يوليو- أغسطس ١٩٧٤م، ص ٥٢٦، نقلاً عن رسالة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والدكتور عدنان النحوي يصور انتقال ابنته إلى زوجها عبدالمعطي الجوهري ويوصيهما بتقوى الله، وحسن المعاشرة، ويعرج على إشراق الحياة وتلألئها في ليلة البناء هذه ليلة العرس؛ فهي من مباهج الحياة التي تمثل الترابط والاجتماع، والتواصل بين المتباعدين من القرابة، لكن يجمعها التقى والصلاح وهداية الرحمن، والخلق الحسن.

ضُمِّي الورود إلى الورود وغرِّدي ... لفتى تُزيِّنه الهدية أمجدِ

ضُمِّي على ثوب الزفاف زُهُوره ... وعلى جبينك لفتة الغارِ النَّدى

وتزيني باللُّؤلؤ المنثور بالـ ... ـياقُوت بالماس النَّقيِّ بعسجَدِ

أغلى الجواهر نعمةُ الرحمن في ... حُسن وفي خُلُق وعِلم مرشدِ

أغلى الجواهر لو علمت فتى رأى ... درب الهُدى أعلى وأشرفَ مقصدِ

الجوهريُّ.. وقد رعاك الله في ... كنف الأبوة والأمومة فاسعدِ

أروى وعبدُاللهُ بُورِكَ فيكما ... من غرستين ومن رضا متُجددِ

نعم القرينة والقرين وبُوركت ... لقيا الهناءة بالنعيم المرفدِ

بُشرى تُساقُ إلى التُّقاة فهلُلا ... لله في عرس الحياة وفي غدِ

كوني كما أمر الإله فأخبتي ... لله خاشعةَ الجَوارح واسجدي

ياربُّ بارك فيهما وعليهما ... واجمعهُما بالخير منك واسعدِ

إن كنت غادرت الديار لغيرها ... مازلت بين ضلوعنا والأكبد

قد أشرقت داري بنُوركُما معا ... قمران من نُور الشباب المهتدي

نُضفي الحنان عليكما من مُهجةٍ ... ومن الضُّلُوع وخَاطرٍ مُتوقِّدِ[1]

ماجستير مخطوطة، عن محمد علي مغربي للباحث محمد علي حسون ص ٤٨١.

(١) عدنان النحو، ديوان مهرجان القصيدة ٢٤٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والدكتور محمد بن حسين، يموج به الحزن لفراق ابنته وارتحالها مع زوجها، فهي ستترك البيت الذي درجت فيه، وتحل إلى بيت جديد في سائر معالمه، تقوم بإدارته، فهو مملكتها، ومناط آمالها، وهي معلم جمال المنزل الجديد كما كانت جمال البيت القديم:

غداً رحيلك يابنتي، فواكبدا ... مما أعانيه من حِل وترحال

غداً رحيلك من بيت درجت به ... إلى مدارج أخرى تطلب الغالي

دار ببنتي أن تزهى جوانبها ... فطالما أسعدت داري وأحوالي

مضت على درب أختيها موفقةً ... وخلفهنّ تراءى درب آمالي

غداً به أمل يستن موكبها ... ويصبح البيت من نوّارته خالي

هن الرياحين في أفياء وهن منزلنا ... في عالمي مستروح البالي

إذا فرحن تناهت فرحتي وسمت ... روحي إلى عالم مستضحك سالي

كأنما الروح في أفراحهن نمت ... وأرضعت منه سلسال بسلسال[1]

وسائر الشعراء ينتابهم الفرح والترح عند زواج بناتهم، فهو يفرح لفرحها بحياته الجديد، وزفافها إلى رفيق العمر، ويتألم لابتعادها.

مشاركة الآباء لبناتهم:

الأب يشارك ابنته آلامها وأحزانها . وما سجله الشاعر من معاناة الآباء لا يمثل واقع الحياة، فالأمر أشد وأنكى وأبكى، فكم تفطرت أفئدة الآباء وهم يصحبون بناتهم إلى المشافي النفسية، أو تأهيل المعاقين، أو رحلات مكوكية بسبب أمراض خبيثة. إن الزائر للمشافي الكبرى يجد أرتالاً من آباء ذبلت وجوههم وحياتهم تماما كما ينحت المرض من بناتهم، ويذرفون

(١) أصداء وأنداء ١٠٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الدمع الهتون، إن الآباء يحملون أثقال الأبوة والبنوة، فإن مرض الأولاد مرضوا، وأن ماتوا حزنوا، وإن عجز الأبناء، أو آصيبوا بمرض يقعدهم، كانت الأحزان مطبقة على فؤادي الوالدين حتى الموت، بل إن الآباء في أمراضهم مع شدة معاناتهم يخشون على أولادهم حتى من حوادث الطرق أثناء زيارتهم إياهم في المشافي وقد رأيت ذلك من والدي يرحمه الله. إن قلوب الآباء والأمهات متنقلة مع البنين والبنات مواكبة لحياتهم إن سعدوا سعد الآباء، وأن حزنوا حزن الآباء والأمهات أذاً فلا غرابة أن نجد معالم من هموم الآباء الشعراء الذين ينقلون لنا جانبا ضئيلا من تلك المعاناة. والمعاناة تختلف مساربها فمنهم من يفكر في مرضه وما يؤل إليه مصير ابنته أو بناته، ومنهم من يفكر في مرضها، وآخر في معاناتها مع زوجها حتى في ولادتها ومرض أو موت أبنائها، ومن ذلك قول الشاعر العربي القديم ابن يسير الذي يشتكي الفقر من أجل ابنته ويرغب في الحياة لرعايتها:

لولا البُنَيَّةُ لم أجزع من العَدَم ... ولم أَجُب في الليالي حِندس الظُّلَم

وزادني رغبةً في العيش معرفتي ... ذلَّ اليتيمة يجفوها ذَوُو الرحم

أخشى فظاظة عمٍّ أو جفاء أخ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

إذا تذكَّرتُ بنتي حين تندبني ... جرت لِعَبرة بنتي عَبرتي بدم

تهوي بقائي وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرُم نَزَّالٍ على الحُرَم[1]

ومن المآسي معاناة البنات بعد الحروب وقد وصفهن الشعراء غير آبائهن في فتنة بغداد بين الأمين والمأمون، ووصف أسامة بن منقذ حالة أمة وأخته لما هجم الصليبيون على شيزر، فقد جعلت بنتها تجلس على نافذة

(١) ابن المعتز، طبقات ابن المعتز ٢٨١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تطل على سحيق بعيد الغور، والأم واقفة بجانبها، فلما دخل عليها أسامة سألها ما هذا يا أماه قالت: لو دخل علي العدو لقذفت بها من النافذة فالموت أفضل من الأسر. ومثل ذلك ما حدث للملك المعتمد بن عباد حين عزله ابن تاشفين وألقى به في غياهب السجن في قرية)أغمات) قرب مراكش وسلبه جميع ماله وتاه أبناؤه وبناته يخدمون في البيوت فزاره بناته ذات يوم في السجن، وكان يوم عيد، وكن يغزلن للناس بالأجره في أغمات، حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه، فرآهن في أطمار رثه وحالة سيئة، فصدّعن قلبه وأنشد:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا ... فساءَك العيد في أغماتَ مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعةً ... يَغزِلن للناس ما يملكن قطميرا

فهو يستذكر أيام النعيم والجاه، وبناته يرفلن في الدمقس والحرير، واليوم يزرنه في يوم العيد بأسمالهن البالية، وهن طاويات جوعا، والوجوه قد عرتها الصفرة، والأجسام نحيلة،والأقدام حافية بعد رغيد العيش ورفاهه.

برزنَ نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

ومنها:

لا خدَّ إلا ويشكو الجدب ظاهره ... وليس إلا مع الأنفاس مطمورا

قد كان دهركَ إن تأمُرُه ممتثلا ... فردَّك الدَّهرُ منهيا ومأمورا

من بات بعدَك في مُلكٍ يُسرُّ به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا[1]

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٥: ٣٥.

والفتاة العربية تحس بمشاعر أبيها، وتعايش خفقان قلبه لمثل هذا فلتتأمل المتأملات، وتتفكر العاقلات، وتستيقظ الغافلات ولتأخذ من أطايب الدنيا بلا إسراف، ولتواسي العاقلة ذوات المآسي والحاجات، ولتدخر من يوم نعيمها ليوم فاقتها وحاجتها، ولتكن شاكرة حامدة في كل شيء، فإن قصة المعتمد وبناته لعبرة عبر الحقب والقرون، فلعلنا لا ننخدع بما نملك من القصور والدور، وما أفاءه الله علينا من الرواتب والمدخرات، فإذا ما كنا حامدين شاكرين فإن الله يديم النعم، فالله نسأل أن يوفق نساءنا وبناتنا إلى ما يرضي ربنا، ويكون في إطار من العقل الإنساني.

وتستلهم الفتاة رؤى والدها فتكاد أن تتحدث بلسانه، وتسلك سلوكه فهذه ابنة لبيد بن ربيعة تقول الشعر نيابة عن أبيها في مدح أمير الكوفة الوليد بن عقبة وشكره، وكان لبيد قد أقسم في الجاهلية أن يطعم ما هبت الصبا واستمر على ذلك بعد إسلامه فلما نزل الكوفة وأميرها الوليد بن عقبة إذ هبت الصبا والأمير يخطب الناس فقال قد علمت حال أخيكم أبي عقيل وما جعل على نفسه أن يطعم ما هبت الصبا وقد هبت الصبا فأعينوه ثم بعث إليه بمائة من الجزر واعتذر إليه.

أرى الجزار يشحذ شفرتيه ... إذا هبت رياح أبي عقيل

أشم الأنف أصيد عامري ... طويل الباع كالسيف الصقيل

فلما وصلت الجزر والشعر إلى لبيد قال إني تركت الشعر منذ قرأت القرآن ودعا ابنته فقالت:

إذا هبت رياح أبي عقيل ... دعونا عند هبتها الوليدا

أشم الأنف أبيض عبشميا ... أعان على مروءته لبيدا

بأمثال الهضاب كأن ركبا ... عليها من بني حام قعودا

أيا وهب جـزاك الله خـيـرا　　نحـرناها وأطعـمنا الوفـودا

فـعـد أن الكريم لـه مـعـاد　　وظني بابن أروى أن يعـودا[1]

فقال لبيد أجبتِ وأحسنتِ لولا أنك سألت في شعرك، قالت: أنه أمير وليس بسوقة ولا بأس بسؤاله، ولو كان غيره ما سألناه قال لبيد أجل.

وأبو حيان الأندلسي يشارك ابنته العالمة (نضار) آلامها وأمراضها ويحس بوطئة المرض المضني، ويتمنى أن تتماثل للشفاء، وتبرأ من أسقامها، وتعود إلى قراءة كتاب الله، ومدارسة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى تعليم اللغة العربية، وترويض نحوها وصرفها إنها العالمة الواسعة الإطلاع، ويشير إلى رحلة الحج، وإلى مجاورتها في مكة المكرمة.

أمـرَّ حـيـاتي يا نُضارُ سـقـامُكِ　　وكـونُك لا يسـري إليكِ منامكِ

أقـمت شـهـوراً لا يبلُّ لك اللُّهى　　شـراب ولا يغـذوك يومـا طعـامكِ

تـواترت الأسـقـامُ نَفْخ وسـعلةٌ　　وقيء وإسـهـال فـعـز مـرامكِ

وعـمـا قليل يذهب البـؤس كله　　ويبدو على إثر العبوس ابتسامكِ

فنُصبح في انسٍ وخيرٍ وصحةٍ　　وحـسن شـبـابٍ طال فـيـه دوامكِ

غذيت بدرَّ الفضل مذ كنت طفلةً　　وكـان بتـعـليم القـرآن فطامكِ

قـرأت كـتـاب الله والسُّنن التي　　أتت عن رسول الله فـهـو امـامكِ

ودارست علم النحو حتى لقد غدا　　فصيحاً بليغاً في البيان كلامكِ

واتقنت خطًّا بارعا يبهر الحجا　　فـفـتَّح عن زهر الرياض كـمـامكِ

وبالكعـبـة الغـراء طُفْت بمكة　　وللحـجـر المُسـوُد كـان التـثـامك

(١) محمد بدر معبدي، أشعار النساء ١٢٢.

وجـاورت أيامـا بهـا ولـيـاليـا وكـان كـثـيـرا بالمقـام مـقـامكِ

وزُرتِ رسول الله أفضل من مشى على الأرض واحتلت هناكِ خيامك[1]

وللشاعر ما يقارب من اثنتي عشرة قصيدة في رثاء ابنته هذه. ومحمد حسن فقي يصدق حين يحكي أن ابنته بضعة منه في ذوب روحه تخطو على الأرض، وهي مهجته حين ينتابها السقام ولا يريد أن يراها وقد أثقلتها الأمراض فهو يتمنى نضارة حياتها، وإشراقة بسمتها وأحاديثها فما أحلى طلياتها وأسئلتها والقصيدة واضحة المعاني جليلة الفكر لا تحتاج إلى تعليل ولا تعليق:

أبنيـتي يا بضـعـة منى تعـاورها السـقـامُ

يا خَفْق قلبي.. يا ربيعي.. يا ضيائي في الظلام

من ذا أسـاء إليك للحسّ الرهيف من الأنام

من ذا أسـاء إليك للنفس الكريمة للسـلام

قولي فما أحلى كلامك.. حين يُعوزني الكلام

إن كان لوم فاذكريه فقد يهدهدني الملام

أو كان عتْب فاشرحيه .. فإن عتبك كالمدام

أو كان سؤل فاطلبيه فلي بسؤالك لي غرام

ويْل السقام فكم تداعب كفُّه هذا القوام

هذا القوام الغضّ يرفل في صبا العشرين عام

ماذا جنى حتى يشبّ بجوفه لهبُ الضِّرام

(١) الديوان ٣٧٨.

أفـذنبُـه هذا السـمّـاح فـلا لجـاج ولا خـصـام

أم ذنبـه هذا العـفـاف فـلا انحـراف ولا أثام

لخشيت مما يعتريك.. وما خشيت من الحمام

لو كـان في كـفي الزمـام.. لكنت كـفكفت الزمـام

لكنه قـدر يُصـيب.. بما يريد من السّـهـام

أبنيـتي لا تجـزعي .. فلربما انقـشع الغـمـام

ولقـد يعـود إليك صَـحْـوك بعـد غـاشـية المنام

كم دمعة سقطت.. فعادت بعد سقطتها ابتسام

فطمـتَك آلامُ الحيـاة .. فـمـا تخـافين الفطام

ورعـتك آيات الحنان .. من الصبـيّـة والغـلام

ومن الكهـولة والشـبـاب.. بمصـر والبلد الحـرام

من كل راع للذمـام .. وكل راعـيـة الذمـام

قَـرِّى فـإن النفس يأسـرها الجـمـيل على الدوام

أبنيـتي.. يا زهرة في الروض.. فـتّـحـها الكمـام

الري أنت فـمـا الشـراب إذا ظمـئْت ومـا الطعـام

أنت الهـيـام فـمـا تنال الغـيـد من هذا الهـيـام

كـالنسـمـة الفـيـحـاء.. أنشقـها إذا اشـتـد الزحـام

وإذا الظلام اشـتـد.. لحت فكنت كـالبـدر التـمـام

أمطرت ياهذا الغمامة.. فـاحذري غضب الجـهـام

ابنيتي إني كبرت .. وأرتجي حسن الختام

أن البناء الضخم حوّله الزمام إلى حطام

إني أحن إلى الرغام.. فنحن أبناء الرغام

فإذا أقمت فأنت لي.. حبي وأحلامي العظام

وإذا رحلت فلست أول من تولى أو أقام

شرّ الوراء تركته لأنال من خير الأمام

إن تندبيني بعد موتي.. تندبي الرجل الهمام

ما كنتُ من رهط اللئام.وكنت من رهط الكرام

قولي: أبي شرف اليراع.. إذا نضاه نضا الحسام

قولي: شرفت مدى الحياة به .. وما بعد الحمام

إني أفترعت من الخلود..بما بذلت له..السنام[1]

جورج صيدح الشاعر المهاجر ينقل لنا أحاسيس الأب تجاه ابنته المريضة وحين يتألم بألمها، ويزداد جرحه ألماً، وقلبه اضطراباً عندما أخذ الطبيب يجري العملية الجراحية، فالمشرط يشرح قلب الوالد مع قلب ابنته بل إنه يفديها بقلبه:

رفقاً بها يامبضع الجراح ... شرحت قلب الوالد الملتاح

إن زدت إيلاماً فضحت تجلدي ... وجمعت بين صياحها وصياحي

والله لو أطلقت روحي لارتمت ... تحت النصال تصدها بجراحي

هذي القطاة فصاحة ريشها ... تكفي إذا انتشرت لقص جناحي

(١) الديوان ٣: ١٠٥.

بالأمس مـدت عنقـهـا من وكنهـا واليـوم تشـهـد مـدية الذباح
وَيْحي دفـعت إلى المشـارط فلذة كنت الضنين بهـا على الأرياح
صـرعت من الآلام في غـيـبـوبة سكرت بها وأنا الصريع الصاحي
قـالوا غلوت بحـبـهـا فـأجـبـتـهم ويل الشـجي من الخلي اللاحى
إن الذي أشـفى على خـوض الدجى مـثلى، ليـقـدر قـيـمـة المصـبـاح
آمنت في علم الطبـيـب وإن في جـرح الجـسـوم سـلامـة الأرواح
رياه سـدد كـفـه وسـلاحـه إني طرحت على يديه سـلاحي[1]

والغـزاوي يشـارك ابنته مـأسـاتها بعـد الزواج بل يصـحـبـهـا في تربيـة أولادها، ويئن معها في أسقامهم، ويحزن لفراقهم، ويتفطر قلبه لفقدهم وموتهم. ان البنت حاضرة الوجود في مهجة والدها. والغزاوي يصور لنا حادثة وصفية لموت أحد أحفاده من ابنته وما كانت تعانيه وما يعانيه الأب والأم مشاركة لأم الطفل:

أحـاط بهـا مـثل الإطار صـغـارها وقـرت بهم عـيـنـا وطاب نهـارها
وفي (حـجـرهـا) طفل غـرير كـأنما تقـسـم فـيـه روحُـهـا وفـقـارها
رضيع كصفو الطل لم يعد ثالث وكـا العين يسـتـهـوي حـوارها القلوب
تناغيـه جذلى وهو يرقص غبطة ويمنى يديهـا حـولـه ويسـارها
وإخـواته صـغـرى وكـبـرى لقـاءها يداعـبـنه والأم يحلو افـتـرارها
تطلعن يبـغـين الحليب وأنه لبـالقدر يغلي كـالغـمـام (بخـارها)
ومن تحـتـهـا «فـوّار غـاز» كـأنه صدى (ديمة) يروي الأديم انهمـارها

(١) د. محمد حسنين، دراسات في الأدب الحديث ١/: ١٣٩.

مشت نحوها زحفا وضمت حفافها فمالت بها واشتب فيها أوارها

هنالك لم تملك من الأمر حلية وألقت (حشاها) واستعز خيارها

رقت طفلها بالنفس حيث رمت به بعيدا وراغتُها على الأرض نارها

وبالرغم منها والقضاء مسلط أصيب وأعياها عليه اصطبارها

فضج وضجت بالبكاء وأقبلت إليه هياما (والحنان) خمارها

تقول ألا اسلم (فلذة الكبد) ولأمت فداءك والآلام يذكو استعارها

إذا انطلقت من قلبه (الغض) آهة عدت (صرخة) منها عميقٌ قرارها

وتجهش حسرى أمها (وقرينُها) (ووالدها) إذ هم عليها(سوارها)

يودون لو كانوا الفداء وما عسى تفيد المنى والألهيات ابتكارها

(بلاء) تساقاه (البريء) وما جنى ويث به لأطواد تكوى حجارها

كأني إذ شاهدته في (غيابة) من البؤس شروى العاصفات اعتكارها

وما كان إلا الصبر للخطب (بلسما) ما وسع الأنفاس إلا انبهارها

لقد شاط من (أم الوليد) نياطها وكالمهل أضحى جلدها وغمارها

فلم تع إلا ما أصاب رضيعها وهيهات أن يغني الصريع انفطارها

وتسأل هل يحيا على أصابه وهل هو ناج والدموع نثارها

وكأن لم تكن تدري وقد فجعت به ما شوتها اللظى أم لم ينلها شرارها

ولو حسرت ما احتزّ منها حسيسها لريعت ولكن أين منها انحسارها

ومرت بنا (الساعات)حرّى كأنها (دهور) وفي (سم الخياط) مدارها

وما هذه الدنيا وإن هي أمكنت سوى (فتنة) مهما ألح اغترارها

عـجـبت لهـا ممكورة وهي(مـاكـر) يصيح بها من جانبيها (بوارها)
وأعجب منها حرصنا في(ابتسامها) ومـا مـثله في الغـدر إلا (ازورارها)
كـــلأتك (رب العـــالمين)فـــإننا (بلطفك) ننجو ما تصدى عثارها
ويا أم هذا (الطفل) مـــاأنت بالتي تفـردت بالأشـجـان شـتى خطارها
تواصي بما أوصى (الإله) حـبـيـبـه فـمـا نحن والأقـدار إلا اخـتـبـارها
ويا باغـمـاً في المهـد يفـضي أنينه إلى (ذات قلب) شف عنه انكسـارها
أعـــيـــذك بالرحـــمن من كل لمة ومن كل عين كالشـهـاب احـمـرارها
ويا (أمـهـات الجيل) حـاذرن مـثلها فـأنتن مـا بين البـيـوت عـمـارها
توقين مـا تخـشين (والله حـافظ) وخير (الوصيا) ما يشيع اعتبارها[1]

رثاء البنات:

إن من أكـبـر المآسي التي يصـاب بها الإنسـان فـقـد الآباء أو الأولاد، فـالهـاجس الذي ينقص حيـاة الفـرد هو تفكيـره في مـوت آبائه أو أولاده، والأب والأم أكثر توجسا فالشاعر يتحدث بلسان كل والد:

وكنت أناجي الله جل جـــلاله بأن فـيك مكروه القـضـاء يقـيني

فإذا تقوضت أركان أحد الأولاد فإن الحياة تكسوها غاشية وأي غاشية، فالحدث جلل والمصاب عظيم، ولا حول للإنسان ولا قوة إلا بالله، وليس له إلا أن يقول إن لله وأنا إليه راجعون، فما يُلقاها ويستلهمها إلا الذين أمنوا واتقوا.

ومما يخفف على المسلم مصائبه إيمانه العميق بالله سبحانه وتعالى،

(١) الديوان الغزاوي ١: ١٢٦٨.

والأمل في حسن مصير الميت، والأجر والمثوبة لذوي الميت. وما أعظم المصيبة في ساعتها لكنها بلطف الله ورحمته تتناقص وتضمحل، لكن وقعها له أثره وذكرها له ديمومته. وقد عبّر العتبي عن تلك الحالة:

ما عالج الحزن والحرارة في الـ أحشاء من لم يمت له ولدُ

ومن المثل موت الولد صدع في الكبد لا ينجبر آخر الأمد»[1]، يقول الشاعر أحمد أبو الفتوح المتوفى ٨٤٥هـ في ولده:

كنت الجليد على الرزايا كلّها وعلى فراقك ما خُلقتُ جليدا

ما هدني مرُّ السنين وإنما أمسيت بعدك بالأسى مهدودا

فلا ريب أن نجد رثاء الأولاد بنين وبنات يكثر في الشعر العربي ومما يعنينا رثاء البنات، واغزر رثاء يطالعنا هو رثاء الصنوبري لابنته في اثنتي عشرة مقطوعة وقصيدة، فهو دائم البكاء، شديد التعلق بها . يقول:

نساء في حداد صائحاتُ كغربان تصايح في الوُكورِ

ينادينَ الأحبَّة فَي صخورٍ وكيف يُجيبُ مَنْ تَحتَ الصُّخورِ

يَنُحْن وما يَنحُنْ شبيه ليلى وينحرن الدموعَ على النحورِ

أبت رؤيا السرورِ عيُون قوم رأوا ليلى تسيرُ على سريرِ

سأبكي ما بكى القمريُّ بنتي ببحر من دموعي بل بُحورِ

ألستُ أحقَّ أن أبكي عليها إذا بكت الطيورُ على الطيورِ

وقال يرثيها أيضاً:

حصلتُ من ليلى على ذكرها وحسبيَ النفس على ضرها

(١) مسعد العطوي، الاتجاهات الفنية في الشعر إبان الحروب الصليبية ١٨٣.

يا عيدَنا أوّل عيدٍ أتى ... فقدت ليلى فيه من خِدرها

بورك للأمّة في عيدها ... فليس أمري فيه من أمرها

عادوا من العيد إلى دورهم ... وعدتُ من عيدي إلى قبرها

وقال يرثيها أيضاً:

ان كنت لا تقدمين من سفرك ... فانتني راحلٌ على أثرك

وقال أيضاً فيها:

كم من عروسٍ قصورٍ ... أضْحَتْ عروس القبور

فهات من أيّ دور ... زفَّت إلى أيّ دُور[1]

وقد كتب الدكتور/ عبد الرحمن الهليل بحثاً متكاملاً عن رثاء الصنوبري لابنته.

ويرثي أبو حيان الأندلسي ابنته (نضار) بما يقارب من اثنتى عشرة قصيدة ومقطوعة، يصور أحزانه وشجونه بفقد ابنته، فلا طيب ولا لذة للحياة بعدها، وهو يشير إلى حياة حافلة بالعلم والتقوى، فقلبها مطمئن لم تضجر، ولم تشتكي لغير الله بل اطمئنت بما يتراءى لها من أحلام توصي برضى الرب عنها.

أمِنْ بعد أن حَلَّت نُضيرةُ في الرَّمس ... تطيبُ حياتي أو تلذُّ بها نفسي

فتاة عراها نحو ستة أشهر ... سُقام غريب جاء مختلف الجنسِ

فحبْنَ[2] وحمى ثم سُل وسعلة ... وسكب فمن يقوى على عللٍ خَمْسِ

---

(١) الديوان.

(٢) الحبن: الورم.

وكـــانت رأت رؤيا مـــرارا وأنهـــا تروح من الدنيا إلى حضرةِ القدسِ

فـقـــرَّ حـشـاها واطمـأنت لما رأت جنانا وكانت من حياة على يأسِ

فما ضجرت يوما ولا اشتكت الضنى ولا ذكرت ماذا تقاسي من اليأسِ

وهو يسعد ببشائر الخير بموتها يوم الاثنين وصلى عليها جمع غفير من الناس لعل شفاعتهم تُقبل، ويتفاءل بصلاحها، وأعمال الخير التي تؤانسها في قبرها، وهي عالمة متدبرة، تالية للقرآن الكريم، متأملة لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وحافظة له.

قضت نحبَها في يوم الاثنين بعدما تبـدى لنا قـرن الغـزالة كـالورسِ

فصلى عليها الناس يثنون وانثنوا بها لضريحٍ مظلمٍ موحش الطمسِ

يونِّسها في رمسها العمل الذي تقـدمـهـا أعظم به ثم من أنسِ

وراحت إلى رب كـريم نظيـفـةً مـبـــراة من كل ذام ومن رجسِ

وكانت نضارُ نعمت الخودُ لم تزل على طاعة الرحمن تضحى كما تمْسِ

نجـيـــةُ قـــرآنٍ تُرَدِّدُ آية مُـقـسـمـةً بين التـدبُّر والدرسِ

وحـاملةُ الآثار عن سـيـد الورى مـحـمـد المبـعـوث للجن والأنسِ

روتها بمصر والحجاز وجاورت بمكة تسـخـو بالدنانيـر لا الفلسِ

وزارت رسول الله أفضل من مشى بطيـبـة واحـتلت بأربُعـهـا الدرسِ

مـصليُـة (حـيناً) عليـه وتارة مسلمةً في الجهر منها وفي الهمسِ

وحـازت جـمـالاً بارعـاً وفـصاحـة فأوضح من شمس وأفصح من قسُ

وتكتب خطاً نادراً ذا بـراعـــة يريك ازدهاء الروض في أبهج اللبسِ

فـمـا الروض مطلولاً تَفتَّح زهره فـراق لذي عين وشـاق لذي حسِ

يابهج مما قد وشَّته أنامل لها بسواد النفس في أبيض الطرسِ

فلو أبصرته لابن مُقلَةْ مقلة لأغضت حياءَ وهو قد عض في الخمسِ

سقى روضةً حلت نضار بتربها من المُزن وَبْلُ دائم السح والبجس

ولا زال تَسقيهِ سحائبُ رحمةٍ تواليه في آتٍ وحالٍ يلي أمس[1]

وقد فجع الشاعر زكي قنصل بوفاة ابنته (سعاد) وهي في الشهر الثامن، فكانت المأساة التي حلت بالشاعر بعد أن عقد آماله عليها، واحتلت عشارى قلبه، واستحوذت على كيانه، فكانت وفاتها سحابة حزن أظلته ردحا من الزمن فيصور موتها العاجل حين يقول:

رفت رفيف الأقحوانة وانطفت في عمرها

ماذا جنت حتى تصيدها الردى في فجرها

يا رب لا تحبس فؤادي لحظة عن ذكرها

والشاعر نصراني حين قال هذه الأبيات، ونحن نؤمن بالقضاء والقدر والحكمة الخفية عن مدارك الإنسان فلله الحكمة في اختزام الأطفال، وله حكمته في قبض أرواح الشباب.

وينظر زكي قنصل من حوله وإذا بأمتعتها وألعابها في سريرها:

هذا سريرُك يا سعاد فأين صاحبة السريرْ

عيني عليه ومهجتي ترتاد حاشية الأثيرْ

ياجدولا ولا ماء فيه ولا رواء ولا خريرْ

هل كنت تحلم أن تصير إلى الهوان وأن نصيرْ

(١) الديوان ٢٢٨.

ويقول:

سـريرك مـا زال في ركنه تدب الكآبة في حـضنه

يكاد يُسـائلني كلمـا تلمس ظلي عن خـدنه[1]

وهو يقف على ضريحها يرثي نفسه الولهاء بسعاد المتعلقة بها، فهو يشتكي الأسى والجراح الغائرة، وهو يتمنى زواله قبل غده بعد أن كان يتمنى الأيام الآتية لاقترانها بسعاد، وهو يزور قبرها لا بشاشة وإنما يكتوي بحرقة النار:

يا من يردُّ إلى شِفاهي بَسمَة الأمل النَّدي

ويُعيدُ لي ما أفنت الآلامُ من قلبي الصَّدي

انا من أسايَ ومن جراحي في ظلام سرمد

قد كان يَضحكُ لي غدي واليوم أهربُ من غدي

ماتت أناشيدي الحِسانُ وبح صوت المُنشِدِ

* *

أسُعادُ جِثتك لا بشاشة في العُيون ولا بريقْ

النارُ ملءُ جوانحي والشوكُ في عَرضِ الطريقْ

دَجَت الحياةُ وشاه في عيني مُحَيَّاها الأنيقْ

لا الروضُ زاهٍ بعد زغلولي ولا عُودي وريقْ

ويحي أأغرقُ في الدُموعِ وليس لي أمل الغريقْ

* *

(١) زكي قنصل: الديوان ١: ٢٩٩.

أين ابتسامتك الندية تملأ العشَ ابتساما
وتُشيعُ في ما حولها أرجًا كأنفاسِ الخُزَامى
أين احتجاجُكِ يستثيرُ الضحك في بابا وماما
ينسابُ دمدمة وينزل في فُؤادينا سلاما
لم تلفظي حرفاً ولكن كنت أفصحنا كلاما

*

هذا سريرك يا سعاد فأينَ صاحبةُ السرير
عيني عليها ومُهجتي ترتادُ حاشيةَ الأثير
جرَدتِهِ لما ذهبت من النَّضَارةِ والعبير
يا جدولاً لا مَاءَ فيه ولاَ رواءَ ولا خَرير
هل كنت تحلُم أن تصيرَ إلى الهوانِ وأن تَصير[1]

ومحمد عبدالقادر فقيه تذرف عيناه دمعاً على طفلته التي ماتت بعد ولادتها مباشرة، فقد تعلق قلبه برؤيتها الأولى، وحمله لها، فكيف بمن تطول صحبتها لوالدها، وتبسمت له، وناغته:

شيّعتُها والليل مح ... تلك ومن حولي الظلام
وحملتها وحدي وفي ... قلبي الشجون لها زحام
ما هزها مهد سوى ... زندي يطوف به الحمام
لهفي.. وما بسمت ولم ... يُسْمَعْ لها يوم بغام
ويقول.. قائلهم تهو ... ن وما يهونُ لها مقامُ

(١) زكي قنصل، الديوان ١: ٢٩٤.

اعـــــــزز.. علـي بأن تـوا ... ريهـا الصـحـائف والرغـام

يـا طـفـلـتـي.. يـا أحـكـم الـ ... ـحكمـاء يا عـقـلا رجـيـح

غـــادرت دنيـــانا علـى ... عـجل فـمن كـان النصـيـح

لم تحـــملي رقـــمـــاً ولا ... لقـبـا ولا اسـمـاً مليح

من عـالم المجـهـول..لـلـ ... ـمـجـهـول في وثب مـريح

وتـركت دنيـــانا ومـــا ... دنيـا الطغـام سـوى ضـريح

دنيـا العـواصف والقـوا ... صف والمبـاذل والقـبـيح[1]

وتتجلى موجات الحزن عند حسين سرحان في رثائه لا بنته مزنة، فيظهر التمازج بين الفتاة المتوفاة والأب المتألم، فيكرر لفظة أراك، وما أبلغها في هذا الموقف فالرؤية تكون في اليقظة والنوم في القرب والبعد فهي تملئ أخيلته وقلبه، وتستحوذ على كيانه، بخلاف الرثاء الذي نجده عند محمد حسن فقي لابنته فهو يرثى نفسه، يقول حسين سرحان:

أراك أراك في نومي وصـحـوي ... وفي بعـدٍ وفي قُـرب قـريب

أراك على النمـارق والحشـايا ... أراك عـلـيَّ آخـــــذة درويـي

أراك كـخـيـر مـا يبـهى محـيًّـا ... على استضحاكه وعلى القُطوبِ

أراك على مـدى طرف مـعـيـدٍ ... أراك على صـدى صـوتٍ مـجـيب

أراك مع الهـواء مع الأمـانـي ... مع الماءِ الذي أحـسـو (بكوبي)

أراكِ مـلأتِ أخـيلتي وقلبي ... وأحـلامي بكل سَنى حـبـيب

أراكِ وربما أبصـرتُ نفـسـي ... خـلالك عـبـر أوديةِ الغُـيـوبِ

(١) محمد عبدالقادر فقيه، المجموعة الشعرية الكاملة ١١٣، الطبعة الثالثة ٣ دون.

أراك . رأتك عينَ الله . خلدا ... تضوع بالمباهج والطيوبِ
أراكِ على النوافذ في ارتقابي ... إذا استبطأت أوبي من ذُهوبي
أراكِ بكل متجهٍ.. بشرق ... وغرب.. في شمال أو جنوبِ
عليك - على ضريحك كل (مُزنٍ) ... تهب به الرياحُ مع الهبوبِ
تمج الغيث في مسك شذي ... له أرجٌ كتمزيق الجُيوبِ
أراه إذا استطار بكل أفق ... ودف بويل هاطلةٍ سكوبِ
يؤم ثُراكِ - مزنةُ -.. إن قلبي ... تحمّل كلَّ أحزانِ القلوبِ[1]

ويبتلى محمد حسن فقي بفقد ابنته في بلاد الغربة في أمريكا أثناء دراستها وكذلك يصاب بمأساة فقد ابنه في سنة واحدة، ويحترق لهذين الحدثين، ويرثيهما، لكن ابنته لها الأثر الأعمق، فآثرها بما يقارب من عشر قصائد، يرثي حالته أكثر مما يرثي ابنته وابنه فيها يقول في قصيدة يرثي بها ولديه:

أبُنيتَّي وبُنى.. هل أنا ظافرٌ ... بعد الردى منكم بوشك لقاء
فارقتمانى .. فاللظى في مهجتي ... يرعى ويستعصى على الإطفاء
قد كنتما ريحانتيَّ فأنتشى ... بالنفح في الإصباح والإمساء
وَذَبِلْتما .. وأتى الخريف بجدبه ... بعد الربيع يعج بالأنواء
ما للخريف وللشيوخ فإنهم ... أنضاءُ أدواءٍ بهم وعياء
أأراكُما .. وأرى النضارةَ والصبا ... بكما أضاءا ظُلمتي وعمائي
إن المنون تهونُ إن هي بشَّرت ... بالقرب بعد ردى من أبنائي

(١) حسين سرحان، الطائر الغريب ٣٩، دار الزامدي للطباعة والنشر الطائف د ت.

يا للحياة وقد خبرت صروفها ... وخبرت ما فيها من الأسواء

في كل يوم يستبينُ لناظري ... منها محيا حاقد ومُرائي

لَزهِدْتُ فيها واجتويتُ رعيلها ... لولا بقايا طيبةٍ ووفاءِ

في كل ألف واحد متطلع ... للخير والحسنى من الشرفاء

يَشدُون بالمدح الكذوب لفاتكٍ ... ولمانحٍ غَدَقاً من الآلاءِ

ويَظَلُّ أعلمهُم بغير تحيَّةٍ ... ويظل أكرمهُم بغير ثناءِ

أبنَيتي وبُنَيَّ.. إن حياتنا ... هذى سرابٌ ما به من ماء

اثنان قد رحلا وكانا واحةً ... للنفس تُبْرِدُها من الرَّمضاءِ

بثمارها .. وزهورها وعيونها ... أنا ساكنٌ في الجنَّة الفيحاءِ

أشقى الأنام إذا استظلَّ ظلالها ... يغدو بها من أسعد السعداء

أرحلتُمَا حقا؟ وهل أنا عاجزٌ؟ ... ككليكما عن فرحة وبكاءِ؟

عن فرحة بلقاكما عن دمعة ... لنواكما عن عصمة وفداء

ليت الذي منح الحياة لهجتي ... جعل الرحيل متى أردتُ جزائي

أنا بالمباهج قد بَرِمتُ لخشيتي ... سوء المصير وليس بالأرزاءِ

وارحمتا لأولى القلوبِ تصدَّعت ... من فرطِ ما لقيت من البأساءِ[1]

وإن كانت القصيدة السالفة ترثي ولديه، فإنه خص ابنته بعدد من القصائد والمقطعات، يحكي مداهمة المرض للفتاة في ميعة الصِّبا، وفتوة الشباب، يتعاظم عليها المرض الفتاك في ربيع حياتها، فيشتد ألمها وحزنها، وتسبح دموعها ثم تودع الدنيا. وهو يعقد مقارنة بين قوة ابنته ونضارتها

(١) الديوان ٦: ٤٢٥.

وبين كهولته وبداية ضعفه، فاخترم المنون القوي النضر، وتجاوز الضعف الواهن.

أُطِلُّ على الصِّبا والحسن يذوى ... فتسبح في مآقي الدموعُ
لقد عَجِلَ الربيع.. وكم خريف ... تريَّث فاستحثته الربوعُ
أتذهب قوةٌ ويظلُّ ضعف ... وتنطفئ الكواكب لا الشموعُ
وكم بكت الأصولُ على فروع ... وقد ذهبت وما بكت الفروعُ
وكم صحو يطول.. وما اشتهينا ... وقصَّر دون شهوتنا الهجوعُ

* * * * * * * * * *

أرى أترابها يبكين وجداً ... عليها .. وهي تَهذِى في الفراشِ
فأبكى مثلهن ولست أدرى ... أحتفى ما يروعُ أم معاشي
لقد سخرت بنا الأيام لما ... تصارعنا على سقط الخشاشِ
وربَّ مطامع أودت بقوم ... فضاعوا بالتخاصُم والهراشِ
تحاشيت الملاحِمَ في حياتي ... فما أرضوهما منى التحاشي
لعمري لست أرغب في حياة ... قد اغتالت أحبائي وصحبي
ولو أنى ملكت بها فتيلاً ... لكنت قضيت قبل اليوم نحبي
فحسبي ما لقيت بكل دَرْبٍ ... مشيت به فكان أضل دربِ
أقول لها أتصرعنا بسلم ... كريه.. أو تصرعنا بحربِ
وما جدوى الحياة بغير حس ... وما جدوى الحياة بغير لُبِّ[1]

وله قصيدة (أكباد تحترق) يحكي قصة المأساة التي داهمت ابنته،

(١) المرجع السابق ٢٤٢.

ويتضرع إلى الله مسلماً لقضائه وقدره، آملاً في مغفرته ورحمته، صابراً محتسباً.

سخوتُ بها على ريب المنون ... لما قاسته من ألم طحونِ
لقد قاستْ من الآلام ما لم ... يُقاس المستوون على أتُونِ
أجوهرتي التي كانت فتُوناً ... ولألاء تُدلُّ على الغصونِ
لقد عصفت بكِ الدُّنيا فأبكت ... عليك توجُّعاً كلَّ الغصونِ
وكم قاسيتُ من شَجَنٍ ولكنْ ... مُصابُكِ كان لي شجن الشجونِ
إذا حكمَ القضاءُ فليس يُجدي ... عليك سوى خضوعك للقضاءِ
وما أنا بالذي أشكو اكتوائي ... ولا أنا بالذي أنعى ابتلائي
لقد فوَّضتُ أمري منذ أمسى ... ومذ يومي إلى رب السماءِ
وأعرفُ أنه يدرى بدائي ... ويرحمني.. ويُعطيني دوائي
رضيت بكل رُزءٍ حين يرضى ... فإن رضاءه أوفى الجزاءِ
فهل سأناله.. وأنا كليمٌ ... فيشفيني ويذهبُ بالمصابِ
نذرت دمي له ونذرتُ مالي ... وأبنائي لأظفرَ بالثوابِ
وقلتُ لكلِّ رزء مُستبد ... تحكم فالغنيمة في الإياب [1]

ومن الشعر القليل الذي عثرت عليه رثاء الشاعرات لبناتهن فقد تدفق مأساة فقد الأبنة في شعر عائشة التيمورية (١٢٥٢ ـ ١٣٢٠هـ) في قصيدة تصور عظم الفاجعة، فكأن يوم القيامة قد أزف على الشاعرة، فالأنوار قد زالت، والشمس قد أنحجبت، والنجوم قد أفلت والنار قد اشتعلت في جوفها.

(١) محمد حسن فقي، الأعمال الكاملة ٦: ٤٢.

فلا مصيبة في نظرها أعظم من مصيبتها لا في الأولين ولا في الآخرين، تقول عن ابنتها (توحيدة):

إن سال من غرب العيون بحور ... فالدهر باغ والزمان غدورُ
فكلُّ عين حق مدرار الدِّما ... ولكل قلب لوعةٌ وثبورُ
ستْرَ السنا وتحجّبت شمس الضحى ... وتغيبت بعد الشروق بدورُ
ومضى الذي أهوى وجرعني الأسى ... وغدت بقلبي جذوةٌ وسعيرُ
ياليته لما نوى عهد النوى ... وافى العيونَ من الظلام نذير
ناهيك ما فعلت بماء حشاشتي ... نار لها بين الضلوع زفير
لو بُثَّ حزني في الورى لم يُلتفت ... لمصاب " قيس " والمصاب كثير
لبستْ ثياب السقم في صغرٍ وقد ... ذاقتْ شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفاء ... إن الطبيبَ بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه ... بالبُرءِ من كل السقوم بشير
فتنفَّستْ للحزن قائلة له: ... عجل ببرئي حيث أنت خبير

وهي تحكي اشتعال قلب الفتاة على مصيرها ومصير أمها بعد وفاتها، فهي تدرك مدى الأحزان:

وارحم شبابي إن والدتي غدت ... ثكلى يشير لها الجوى وتشير
واراف بعين حُرِمتْ طيب الكرى ... تشكو السهاد وفي الجفون فتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمع المقلتين غزير:
أماه قد كلَّ الطبيبُ وفاتني ... مما أومّل في الحياة نصيرُ
لو جاء عراف " اليمامة " يبتغي ... بُرئي لردَّ الطرفَ وهو حسيرُ

ياروع روحي حلّهـــا نزع الضّنا عـــما قليلٍ ورفّـهـا ستطيـرَ
أمـــاه قـد عـزَّ اللقـــاء وفي غـد ستـرين نعشي كـالعـروس يسـير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي هو منزلي وله الجـمـوع تصـيـر
قـولي لرب اللحـد: رفقـا بابنتي جاءت عـروساً ساقـهـا التـقـدير
وتجـلدي بـإزاء لحـــــدي برهـة فـتـــراك روح راعـهـا المقـدور
أمـــاه قـد سلفت لنا أمنيَّـــة يا حسنها لو ساقـهـا التـيـسـير
كـانت كـأحـلام مـضت وتخلفت مـذ بان يوم البين وهو عـسـيـر
عـــودي إلى ربع خـــلا ومـــآثر قـــد خُلِّفَتْ عني لهـــا تأثيـر
صوني جهـاز العرس تذكاراً فلي قـد كـان منه إلى الزفـاف سـرور
جرت مصائب فرقـتي لك بعد ذا لبس الســـواد ونُفِّـذَ المسطور
والقبـر صار لغـصن قدِّي روضـةً ريحـــانهـــا عند المزار زهور
أمـــــاه لا تنسي بحق بنوتي قـبـري لئلا يحـزن المقـبـور
ورجـــاء عـــفـــو أو تلاوة مُنْزَلٍ فـســـواك من لي بالحنين يزور
فلعلَّمـا أحظى برحـمـة خـالق هـو راحم بـرٍّ بـنـا وغـــفـــور

ثم تجيب ابنتها بقلب موتور، وكبد محترقة بأن الحياة قد زال صفوها، وعلا كدرها، وتعاهدها بأن تتعهدها بالدعاء والتهجد وتلاوة الذكر:

فأجبتها والدمع يحبس منطقي والدهر من بعـد الجـوار يجـورُ:
بنتاهُ ياكبـدي ولوعـة مُهـجتي قـد زال صـفـوٌ شـأنه التكدير
لا تُوصَ ثكلى قـد أذاب وتينهـا حـزنٌ عليك وحـسـرةٌ وزفـيـرُ
قـسـمـاً بِغضِّ نواظرٍ وتلهـفي مـذ غـاب إنسـانٌ وفـارق نور

ويقبلتي ثغراً تقضى نحبه ... فحرمتَ طيب شذاه وهو عطير

والله لا أسلو التلاوة والدّعاء ... ما غردت فوق الغصون طيور

كلا ولا أنسى زفير توجعي ... والقد منك لدى الثرى مدثور

إني ألفت الحزن حتى إنني ... لو غاب عني ساءني التأخير

قد كنت لا أرضى التباعد برهة ... كيف التصبر والبِعادُ دهور؟

أبكيك حتى نلتقي في جنةٍ ... برياض خلد زيَّنتها الحور

إن قيل " عائشة " أقول لقد فنى ... عيشي وصبري، والإله خبير

ولهى على " توحيدة "الحسنِ التي ... قد غاب بدر جمالها المستور

قلبي وجفني واللسان وخالقي ... راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

مُتِّعتِ بالرضوان في خلد الرضا ... ما ازَّينت لك غرفة وقصور

وسمعت قول الحق للقوم: ادخلوا ... دار السلام فسعيكم مشكور

هذا النعيم به الأحبة تلتقي ... لا عيش إلا عيشه المبرور

ولكِ الهناء فَصِدْقُ تاريخي: بدا ... " توحيدة " زفت ومعها الحور[1]

والرثاء في شعر الآباء والأمهات أغزر الأشعار وأكثر الموضوعات التي قيلت في البنات، ويتلفع موجات من الحزن، ولواعج المشاعر ونفث الحرقة، وتقرح الكبد، وليس أدل على ذلك من قصيدة عائشة التيمورية في رثاء ابنتها(توحيدة) كما تجلى في رثاء الصنويري وأبي حيان الأندلسي لابنتيهما.

(١) حلية الطراز (ديوان عائشة التيمورية ١٠٩، الطبعة الأولى ١٩٥٢م، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة.

والمصادر المراجع

١- إبراهيم السبيل، نقوش على صفحة المجتمع ، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض ١٤١٧هـ.

٢- أحمد رامي ، الديوان ٢٣٨، بيروت ، دار العوده، ١٩٨٧م.

٣- ديوان الأعشى، ص٢٧٣ بتحقيق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة ١٣٠٤هـ- ١٩٨٣٢م.

٤- البارودي ، الديوان، شرح علي عبدالمقصود عبدالرحمن، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى ٥٤١هـ- ١٩٩٥م.

٥- حسين سرحان، الطائر الغريب ٣٩، دار الزايدى للطباعة والنشر، الطائف.

٦- حمزة شحاته، الديوان، الطبعة الأولى، دار الأصفهاني للطباعة والنشر ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٧- ابن خلكان، وفيات الأعيان ٥، دار صادر / بيروت، الطبعة الأولى.

٨- أبو دلامة، الديوان، تحقيق د. برشدى على حسن ، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م ص٩٥.

٩- زكي قنصل ، الأعمال الشعرية الكاملة ، عبدالمقصود محمد سعيد خوجه، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، جده.

١٠- الدكتور: زهدي صبري الخواجا ، الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، دار المناصر ة، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

١١- عائشة التيمورية، حلية الطراز (ديوان شعر) مطبعة دار الكاتب العربي القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٢م.

١٢- عبدالإله محمد جدع، أحبك ١٧ ، تهامة ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

١٣- الأمير عبدالله الفيصل، حديث قلب ، دار الأصفهاني للطباعة بجده- بلا تاريخ -.

١٤- عبدالله محمد باشراحيل، التبع الظامي ٢٦٢ ، مطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

١٥- عبدالله بن خميس، على ربى اليمامة، الطبعة الثانية، مطابع الفرزدق، الرياض عام ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٦- د. عبدالرحمن العشماوي، يا ساكنة القلب ٨٢٢ ، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٧- عبدالسلام هاشم حافظ . الأربعون ٦٤١ ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٨- على زين العابدين، ديوان تغريد، دار العلم، جدة الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٩- د . غازي القصيبي، المجموعة الشعرية الكاملة، مطبوعات تهامة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ١٩٨٧م.

٢٠- الغزاوي، الديوان ١:١٢٦٨، تحقيق د. مسعد عيد العطوي، الطبعة الأولى.

٢١- أبو فراس الحمداني، الديوان، تحقيق د . إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع.

٢٢- د . فهد محمد النفجان، نداء حبي، منشورات دار ثقيف للنشر والتأليف، الطائف، الطبعة الأول ١٩٧٨م.

٢٣- المبرد، الكامل، تحقيق محمد أحمد الدائي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ،١٩٨٦م.

٢٤- محمد حسن العمري، ينابيع الربيع، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، الدار

السعودية للنشر والطبع.

٢٥- محمد حسين فقي، الأعمال الكاملة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

٢٦- د . محمد بن عد حسين، دراسات في الأدب الحديث، الطبعة الخامسة مطابع الفرزدق، الرياض عام ١٤١١هـ،١٩٩٠م. أصداء وأنداء، مطابع الفرزدق بالرياض، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

٢٧- محمد عبدالقادر فقيه، المجموعة الشعرية الكاملة ص١١٣، المطبعة الثالثة.

٢٨ - محمد معبدي، أشعار النساء في الجاهلية والإسلام، الطبعة التجارية المدينة، مصر، الطبعة الاولى عام ١٩٨٦م.

٢٩- ابن المعتز، طبقات ابن المعتز، تحقيق عبدالستار فراج دار المعارف المصرية، الطبعة الثالثة.

٣٠- معروف الرصافي، إيليا الحاوي، الطبعة الثانية ١٩٨١م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٣١- السيدة زينب، موسى محمد علي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م، عالم الكتب.

فهرس المراجع

المقدمة ٧

المرأة في الجاهلية ١٣

كراهية بعضهم للبنات ٢٦

حماية الفتاة ٢٧

الانحراف الفكري حول البنات ٣٦

التعليم المعاصر للفتاة ٤٨

تعليم الفتاة في المملكة العربية السعودية ٥٠

الاتجاه الفكري حول تعليم الفتاة ٦٥

صورة البنات في الشعر ٧١

الولادة ٧٤

مداعبات البنات من الطفولة ٨٤

محادثة البنات ١٠٦

زواج البنات عند العرب ١٢٤

مشاركة الآباء لبناتهم ١٣٩

الرثاء ١٤٨

المراجع والمصادر ١٦٣

المسرد ١٦٧

مطابع الجامعة